القسم 1

إتجاهات في العولمة

Trends in Globalization

obeikandl.com

obeikandl.com

2

جيفري فرانكل
Jeffrey Frankel

عولمة الاقتصاد

تعتبر العولمة الاقتصاديَّة واحدة من أشد القوىٰ التي شكَّلت عالم ما بعد الحرب. فقد أَصبحت التجارة العالميَّة بالبضائع والخدمات هامَّة بصورة متزايدة خلال السنوات الخمسين الماضية، كما تزايد تدفّق الأموال العالمي خلال السنوات الثلاثين الماضية. يوثق هذا الفصل من الناحية الكمية عملية العولمة للتجارة والمال. ومن ثم يذهب بإيجاز إلىٰ ما وراء أسباب التكامل الاقتصادي العالمي ويفكر بالنتائج ويتوصَّل إلىٰ الاستنتاج بأن العولمة بصورة مجملة شيء جيد ليس من أجل النمو الاقتصادي فحسب، لكن حين تؤخذ الأهداف غير الاقتصاديَّة بالحسبان أيضاً.

إن الدافِعَيْن الرئيسيين لعولمة الاقتصاد هما: تخفيض تكاليف النقل والاتصالات في القطاع الخاص، وتخفيف العوائق التجارية في وجه التجارة والاستثمار في القطاع العام. لقد ظل التقدّم والتجديد التقني يدفع تكاليف النقل

(*) يود المؤلف أن يشكر Jagdish Bhagwati وAsh Carter وFarhad Rassekh وDani Rodrik وPierre Sauve وIra Shapiro وRob Stavins وArvind Subramanian وDaniel Tarullo وAlan Winters علىٰ ملاحظاتهم.

والاتصالات نحو الانخفاض بشكل ثابت. ولقد رأينا في فترة ما بعد الحرب تقدّماً كبيراً في توفير الكلفة، حتى ضمن الشحن البحري: ناقلات كبيرة جداً، والسفن التي تسمح بصعود ونزول السيارات وشحن الحاويات. في الفترة ما بين 1920 و1990 هبط متوسط أجور الشحن ورسوم المرفأ بالنسبة للطن من واردات وصادرات الولايات المتحدة من 95 دولاراً للطن الأمريكي إلىٰ 29 دولاراً (محسوبة علىٰ أساس دولار 1990). وتزداد حصة الشحن الجوي. وهبط متوسط كلفة النقل الجوي ما بين 1920 و1990 من 0,68 دولار إلىٰ 0,11 دولار للمسافر/ ميل. ولقد غيَّر الشحن الجوي النفاث والبريد من وضعية البضائع التي كانت تصنَّف في السابق بأنَّها غير قابلة للمتاجرة علىٰ النطاق العالمي. أما الآن فترسل عبر القارات الأزهار المقطوفة حديثاً، والبركولي والفريز والسرطان البحري وحتى البوظة[1]! وقد هبطت تكاليف الاتصالات هبوطاً سريعاً وكبيراً. ففي نفس الفترة هبطت كلفة المكالمة الهاتفية لمدة ثلاث دقائق ما بين نيويورك ولندن من 244,65 دولاراً إلىٰ 3,32 دولاراً. ولا تحتاج الاختراعات الحديثة كالفاكس والإنترنت إلىٰ ترويج.

من السهل أن نبالغ بمدىٰ العولمة. والنقاش الحماسي للموضوع يجعله يبدو كأن الزيادة السريعة في التكامل عبر حدود الدّول تجري لأول مرة. ويقول بعض المعلِّقين إن الموضوع قد ذهب بعيداً جداً لدرجة أَصبح معها كاملاً، ويسمع المرء أن المسافة وحدود الدّول لم تعد أموراً هامة، وأن دولة الأمة والجغرافية نفسها لم تعد تتعلَّق بالأغراض الاقتصاديَّة، وأَنَّه أَصبح الآن من السهل عقد الصفقات مع الزبائن عبر العالم تماماً كما تتم عبر المدينة. وفوق ذلك كله، ألم تخفض الشبكة العالميَّة للمعلومات (الإنترنت) الحواجز عبر الحدود إلىٰ الصفر؟

من الخطأ أن يضع صانعو السياسة أَو المواطنون الخاصون قرارات علىٰ أساس أن العولمة جديدة لدرجة أن ممارسات الماضي لا علاقة لها بها، أَو أن

الظاهرة لا تقبل الرجوع الآن، أو أن السلطات المالية القوميَّة عاجزة الآن أمام السوق العالميَّة، أو أن نوعية الحياة الأمريكية ـ من النواحي الاقتصاديَّة أو غير الاقتصاديَّة ـ تقررها التطورات الخارجية أكثر مما تطورها الأعمال الأمريكية في الوطن.

يُستحسن التمييز بأنَّه عند كل نقطة في التاريخ، تنشط عوامل قوية وكثيرة لتدفع الدّول بعيداً عن بعضها، كما تعمل في الوقت نفسه عوامل قوية علىٰ تقليص العالم. ففي التسعينيات مثلاً، في الوقت الذي جعلت القوىٰ، كشبكة الإنترنت واستخدام الدولار، البعضَ يعلن سقوط دولة الأمة، ولدت أمم كثيرة (نتيجة لتفكك الاتحاد السوفياتي السابق) أكثر من أي عقد مضى ما عدا عقد الستينيَّات عند انتهاء الاستعمار، ولكل من هذه الأمم عملاتها وسياساتها التجارية[2]؟ لقد سيطرت قوىٰ الانكماش والتقلص في العقود الأخيرة، لكن القوىٰ النابذة هامَّة أيضاً.

علامتان لقياس التكامل الاقتصادي

إن السجل الكلي للتكامل الاقتصادي التام لفترة ما بعد الحرب العالميَّة الثانية عبر الحدود القوميَّة، قوي كما كان في مجالين، لم يكن مدهشاً كما كان يعتقد علىٰ نطاق واسع. المنظور الأول أن نحكم بمقياس ما قبل مائة سنة. والثاني أن نحكم بمقياس ما يمكن أن يعني وجود تكامل اقتصادي عالمي تام حقاً.

الحكم علىٰ عولمة سنة 2000 بمقياس سنة 1900

كانت العولمة التي حدثت في القرن التاسع عشر رائعة بقدر روعة الحدث الذي يجري الآن علىٰ الأقل. لقد حدثت الانطلاقات الثورية في الانتقال والاتصالات حتى سنة 1900، مثلاً، القطارات والسفن والبرقيات والتبريد. وانخفضت أجور الشحن انخفاضاً حاداً خلال القرن. قدم السلام البريطاني بيئة استقرار سياسي كما قدَّم مقياس الذهب بيئة استقرار مالي. ويرى كيڤن أورورك Kevin O'Rourke وجيفري وليامسن Jeffrey Williamson أن الفروق في أسعار

السلع قد تقلَّصت بشكل كبير نتيجة لنمو التجارة السريع[3].

لا بدَّ من أن أستشهد بالقول الشهير لجون مايناردكينيس، John Maynard Keynes: «أي حدث خارق في تقدم الإنسان في ذلك العصر الذي انتهى في سنة 1914. . . . يستطيع القاطن في لندن أن يطلب بواسطة الهاتف وهو يحتسي كوباً من الشاي في سريره منتجات متنوعة من جميع أنحاء الكرة الأرضية. . . . ويستطيع في الوقت نفسه، وبذات الوسيلة أن يغامر بثروته بالمصادر الطبيعيَّة والشركات الجديدة في أي حي من أحياء العالم»[4].

اتخذ العالم خطوة كبيرة إلىٰ الوراء من العولمة الاقتصاديَّة خلال الفترة من 1914 إلىٰ 1944. وكانت بعض أسباب هذا التراجع مشاعر العزلة في الغرب نتيجة للحرب العالميَّة الأولىٰ، وعدم الاستقرار المالي، والكساد الاقتصادي الذي حل في فترة الحرب، وزيادة التعرفات الجمركية والعوائق التجارية الأخرىٰ بما فيها تبني الكونغرس في الولايات المتحدة تعرفة سموت ـ هاولي Smoot-Hawley في 1930، ونشوء المعسكر الفاشي في الثلاثينيَّات وظهور المعسكر الشيوعي في الأربعينيَّات. كل هذه العوامل حافظت علىٰ العقبات التي خلقتها الحكومات، علىٰ عكس قوىٰ التكنولوجيا والسوق الخاص التي تميل إلىٰ تخفيف العقبات. نتيجة لذلك، كان العالم الذي ظهر في سنة 1945 مجزّأً اقتصادياً أكثر من العالم الذي انهمك بالحرب في سنة 1914.

كان المنتصرون مصمِّمين علىٰ ألاَّ يكرِّروا الأخطاء التي ارتكبوها إبان الحرب العالميَّة الأولى. إنهم سيعملون علىٰ تطوير تكامل اقتصادي علىٰ نطاق واسع في هذا الوقت حتى يحقِّقوا أهدافاً سياسيَّة طويلة المدىٰ. فأقاموا مؤسَّسات متعددة الجوانب للتحكم بالأموال والاستثمار والتجارة العالميَّة، صندوق النقد الدّولي، والبنك الدولي، والاتفاقية العامة للتجارة والتعرفات الجمركية[5]. وبدأت الولايات المتحدة تدل علىٰ الطريق وذلك بتخفيض العوائق التجارية وتوفير دولار يمكن تحويله إلىٰ ذهب.

بواسطة إجراء تجاري أساسي، وهو تصدير أَو استيراد البضائع كجزء من

الناتج العام، استغرقت الولايات المتحدة أكثر من خمس وعشرين سنة بعد انتهاء الحرب العالميَّة الثانية قبل أن تصل قرابة سنة 1970 إلىٰ المستوىٰ نفسه من العولمة الذي كانت تمارسه عشية الحرب العالميَّة الأولىٰ. واستمر هذا الجزء بالزيادة السريعة ما بين 1971 و1997، حتى وصل إلىٰ 9٪ اليوم، ولا يزال دون المستوى الذي كان في بريطانيا خلال القرن الماضي وأوائل القرن العشرين. وبمقياس آخر، وهو ما يتعلَّق بحرية عامل الانتقال، لم يكن العالم أكثر تكاملاً عند دخول الألفية الجديدة مما كان عليه عند دخول القرن السابق[6].

يجد معظم الناس أنه من المدهش ألاّ تحتفظ التجارة بأهميتها التي كانت لها قبل الحرب العالميَّة الأولىٰ إلىٰ أن كانت أوائل السبعينيَّات. إن أهمية المقارنة مع 100 سنة مضت تذهب إلىٰ ما وراء الحقائق غير المثبتة التي يسعد المؤرخون الاقتصاديون بالقفز فوق الأشياء التي لم تبدأ. ولأن تقنية «اعرف كيف» لا تعرف الرجوع ـ أو كانت غير قابلة للرجوع خلال الألفيَّة الثانية، إن لم تكن خلال الألفية الأولىٰ كلها ـ هناك ميل لأن نرىٰ العولمة لا تقبل الرجوع. لكن القوىٰ السياسيَّة التي جزَّأت العالم خلال ثلاثين سنةً (1914 ـ 1944) كانت أقوىٰ كثيراً من تعاظم التقدّم التقني في النقل الذي استمر طيلة تلك الفترة. فالدرس هو؛ لا شيء محتوماً في عملية العولمة. وحتى تستمر العولمة، يجب علىٰ قادة العالم أن يأخذوا بالخيارات التي كانت مطروحة بعد الحرب العالميَّة الثانية بدلاً من تلك الخيارات التي كانت بعد الحرب العالميَّة الأولىٰ.

الحكم بمقاييس التكامل الاقتصادي التام لعولمة سنة 2000

ربما يكون التكامل الاقتصادي التام عبر الحدود القوميَّة دمية من القش. (قد يفكِّر القارئ هكذا في نهاية الفصل إن لم يكن فعل ذلك في البداية). لكن لدمى القش أغراضاً، وهنا يوجد حوار يكفي ليبرِّر هذا الاهتمام. فدمية القش الجيدة يجب أن تكون كبيرة حتى تؤثِّر في الغربان، ولكن ليس كبيرة جداً بحيث لا يمكن تفريغها. في كلا الهدفين يحقِّق اقتراح التكامل الاقتصادي العالمي التام ذلك بصورة مثيرة للإعجاب.

فكّر ثانية بالإحصائيات الأساسية للتكامل التجاري، مجموع صادرات الدّولة من السلع والخدمات، أو مجموع المستوردات كجزء من مجمل الناتج المحلي. مع الزيادة السريعة في الخدمات المشمولة، يبلغ متوسط هذه النسب 12٪ في الولايات المتحدة. ويحتمل أن يمثّل المستوىٰ الحالي للتجارة ضعف ما كان عليه قبل 100 سنة. لا يزال هذا الدليل المدهش من انخفاض تكاليف النقل والتعرفات الجمركية والعوائق التجارية الأُخرىٰ، بعيداً كل البُعد عن الوضع السائد لو كانت هذه التكاليف والعوائق تبلغ الصفر. وسوف توثق هذا الزعم فيما يلي إحصائيات أكثر تطوراً. لكن حساباً بسيطاً جداً يكفي لإيضاح هذه الفكرة. يبلغ ناتج الولايات المتحدة $\frac{1}{4}$ الإنتاج العالمي الإجمالي. فيكون ناتج الدّول الأخرىٰ المنتجة حوالى $\frac{3}{4}$ الإنتاج العالمي الإجمالي. فلو كان الأمريكيون يشترون سلعاً وخدمات من المنتجين الأجانب بنفس السهولة التي يشترون بها من المنتجين المحليين، فسوف تؤلّف المنتجات الأجنبية حصة من إنفاق الولايات المتحدة مساوية لحصة إنفاق أي مقيم متوسط علىٰ هذا الكوكب. إن نسبة واردات الولايات المتحدة إلىٰ الناتج المحلي الإجمالي هي 0,75. ويصح الشيء نفسه علىٰ نسبة الصادرات إلىٰ الناتج المحلي الإجمالي. لكن علاقات التناسب هذه نحو $\frac{1}{6}$ فقط من هذا المستوىٰ المفترض (12 بالمائة/ 75 بالمائة = السدس). بعبارة أُخرىٰ، يجب أن تزداد العولمة ست مرات أخرىٰ، قياساً إلى نسبة التجارة، قبل أن تصبح حقيقة بالمعنى الحرفي أن الأمريكيين يقومون بالأعمال بسهولة في جميع أنحاء العالم كما يفعلون في بلادهم.

لا تزال بلاد أُخرىٰ بعيدة عن الانفتاح التام بهذا المعنى. فنسبة تجارة السلع إلىٰ الناتج العالمي كله ضعف نسبة الولايات المتحدة. وينبغي توقع ذلك، فالبلاد الأخرىٰ أصغر. والنسبة في الكيانات الاقتصاديَّة الكبيرة ـ اليابان، والاتحاد الأوروبي ككل ـ قريبة من مستوىٰ الولايات المتحدة. وفي كل الأحوال تقريباً تقصّر النسبة عن المستوىٰ الذي يسود في عالم متكامل[7]. في

الشكل (2 ـ 1) يمثِّل البُعد العمودي حصة الدّولة من الناتج الذي يباع إلىٰ المواطنين أكثر مما يصدر منه. والحركة إلىٰ الأسفل تصور أن الدّولة أَصبحت أكثر انفتاحاً خلال 130 سنة الماضية. (يستطيع أن يرىٰ المرء أيضاً أن اتجاه التكامل قد قوطع خلال فترة الحرب). لا تزال الولايات المتحدة بعيدة عن الانفتاح الكامل: فحصة الناتج المباعة محلياً لا تتناسب مع الحصة من الناتج العالمي. بعض الدّول الأخرىٰ ذات تناسب بين التجارة والناتج المحلي الإجمالي أعلىٰ منه في الولايات المتحدة وذلك نتيجة لكون الدّولة أصغر حجماً وأقل اكتفاء ذاتياً. ومع ذلك فإنَّها بعيدة عن الانفتاح الكامل بصورة مماثلة.

الشكل 2 ـ 1

حجم الدّولة (الحصة من الناتج العالمي) مقابل الانغلاق (المبيعات المحلية/ الناتج العام)

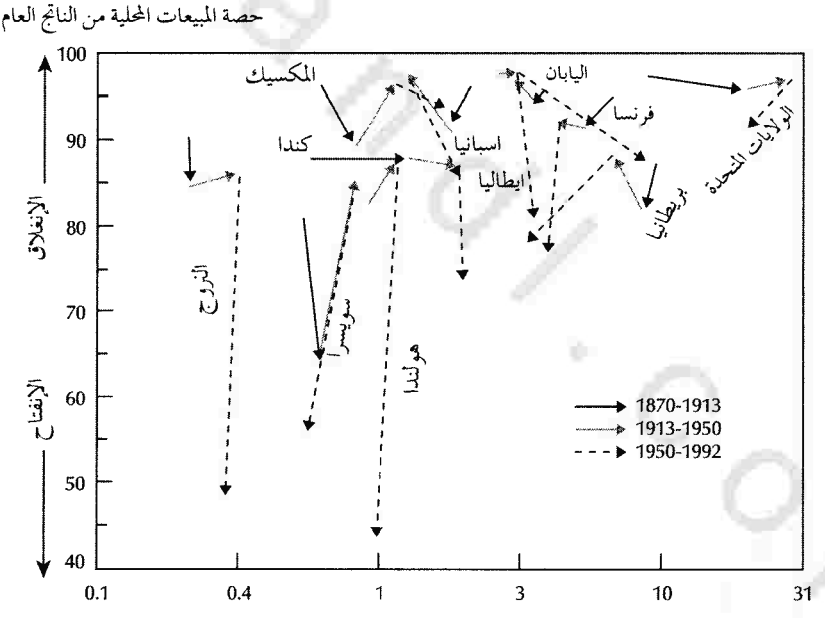

المصدر : حسابات المؤلِّف والمعطيات من آنغوس ماديسون Angus Madison، «Monitoring the world Economy» (باريس: مركز التنمية لمنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية OECD 1995).

لاحظ: الانغلاق، 100 * (1 - (X/GDP))

لماذا لا تزال العولمة بعيدة عن أن تكون كاملة؟ لأخذ فكرة عن مجموع تكاليف النقل والعوائق التجارية والكسور الأخرىٰ التي يتوجب كشفها، يجب علينا أن نتعمّق بالإحصائيات أكثر.

الإجراءات الإحصائية للتكامل الاقتصادي

قد يكون مفيداً أن ننظر إلىٰ الإجراءات مباشرة حول كيفيَّة تغير عوائق التكامل عبر الحدود خلال القرن العشرين: مستوىٰ التعرفات علىٰ الصناعات كتوضيح للسياسة التجارية، أَو سعر المكالمة الهاتفيَّة عبر المحيط الأطلسي كتوضيح للتغير التكنولوجي في مجال الاتصالات والنقل. لكن العوامل الحاسمة السياسيَّة والمادية كثيرة جداً ومتنوعة جداً بحيث لا يمكن جمعها في بضع إحصائيات رئيسية تستطيع قياس المدىٰ الكلي للتكامل التجاري أَو المالي. تختلف مثلاً التعرفات اختلافاً كبيراً في ما بين السلع، ولا توجد طريقة واحدة معقولة لجمعها معاً. والوضع أسوأ بالنسبة للعوائق الأخرىٰ غير التعرفات. والإجراءات البديلة الممكنة ذات الأهمية المماثِلة للتعرفات والعوائق التجاريَّة الأُخرىٰ تتمتع في ما بينها بترابط منخفض جداً[8].

إن القياس الشامل لتكاليف الشحن لتجارة بلد ما هو نسبة القيمة التجارية Cif (وتقاس ككلفة الدّولة المستوردة بما فيها الشحن والتأمين)، إلىٰ القيمة التجارية Fas or Fob (فاس أو فوب) (وتقاس ككلفة الدّولة عند مغادرة البضاعة للدولة المصدِّرة «علىٰ رصيف الشحن» أَو «خالصة علىٰ ظهر الباخرة»). لقد هبط ربح الولايات المتحدة إلىٰ نحو 9٪ في الخمسينيَّات، وإلىٰ نحو 6٪ في التسعينيَّات. (المعدل العام في العالم أقل من 4٪). لكن يحتمل أن تكون هذه الأرقام تقلِّل من أهمية هبوط تكاليف الشحن. والسبب هو اختلاف تركيب التجارة، وتختلف أرباح الشحن علىٰ أساس Cif كما اختلف التأمين اختلافاً كبيراً في ما بين السلع وفي ما بين الشركاء التجاريين[9].

من المفيد أن ننظر إلىٰ القياسات الموجزة لآثار العوائق الحدوديَّة علىٰ

صيغة التجارة والاستثمار أكثر من النظر إلىٰ قياسات العوائق نفسها. ويستخدم الآن نوعان من المقاييس: المتعلقة بالكميات، وتلك المتعلّقة بالأسعار.

قد تبدو مقاييس الكميات أكثر مباشرة: «فقط ما هو حجم التدفق العالمي؟» لكن رجال الاقتصاد يفضلون النظر إلىٰ مقاييس الأسعار. في المقام الأول إن نوعيات المعطيات بالنسبة للأسعار غالباً ما تكون نوعية عالية، أعلىٰ منها للكميات. (هذا صحيح سيما في أَسواق المال العالميَّة، فمعطيات أَسعار الضمانات الأجنبية جيدة جداً، ومعطيات التجارة العالميَّة مجتمعة بشكل ضمانات سيئة جداً). وفي المقام الثاني، وحتى علىٰ المستوىٰ التصوري، إن الفروق الدّولية في أَسعار سلع محددة أَو أملاك معينة تقيس قدرة الموازنة العالميَّة في الحفاظ علىٰ هذه الأَسعار متناسقة، هي مؤشرات أكثر فائدة علىٰ مدى التكامل بمفهومه غير الرسمي. فكّر بمثال تجارة الولايات المتحدة بالمنتجات النفطية. إنَّها ليست كبيرة كنسبة مئوية من ناتج الولايات المتحدة أَو استهلاكها، لكن الموازنة تربط سعر النفط داخل الولايات المتحدة قريباً من سعره في السوق العالميَّة. حتى في ما بين دولتين ليس بينهما أية تجارة نفطية أبداً ستجد أن الأَسعار فيهما تتحرك بشكل وثيق. إن غياب العوائق وقوة التجارة علىٰ نطاق واسع هما ما يحفظ الأَسعار متناسقة ويجعل الأَسواق متكاملة بالمعنى الكامل للكلمة، وليس حجم التجارة التي تحدث.

قدرة الموازنة علىٰ إلغاء الفوارق في أَسعار السلع

تعرف الموازنة بحسب النظرية الاقتصاديَّة الأساسية بأَنَّها فعالية شراء سلعة ما حيث هي رخيصة الثمن وبيع السلعة نفسها بالوقت نفسه حيث هي مرتفعة الثمن، وبذلك تدفع الأَسعار نحو المساواة. وفشلها في تحقيق ذلك بصورة تامَّة مصدر دهشة علماء الاقتصاد المتكرِّرة (وربما لا تدهش أحداً سواهم). وغالباً ما يكون التفسير أَن السلع المذكورة ليست متماثلة حقاً. فالاسم التجاري مهم، هذا إذا لم تكن أسباب أخرىٰ هامة كبيع المفرق والضمانة وخدمة

الزبون. فعلىٰ سبيل المثال، ليست سيارة BMW سيارة ليكسس نفسها بالتأكيد، بل إن السيارة BMW التي تباع في ألمانيا ليست السيارة BMW نفسها التي تباع في الولايات المتحدة (معدات ضبط تلوث الهواء مختلفة، مثلاً). عندما تستخدم المقارنة بين الدّول جداول معدلات أسعار مجمعة كاختبارات قياسية «للمساواة في القدرة الشرائية»، ليس مدهشاً أبداً أن نرىٰ دليلاً ضعيفاً علىٰ الموازنة[10]. ويدهش وجود فروق في الأَسعار العالميَّة في حالة السلع المتجانِسة والتي لا تحمل اسماً تجارياً مثل الخرادق العادية. وبيَّنت الاختبارات أن فوارق الأَسعار لسلع معينة هي أكبر عبر حدود الدّول مما هي ضمن الدّولة. يحتمل أن يكون تغير أَسعار صرف العملات هو المسؤول[11].

لعل الدهشة الأكبر تأتي من ندرة الدلائل علىٰ توجه فوارق الأَسعار نحو التلاشي عبر حقبة كبيرة من التاريخ. لقد حصل كينيث فروت Kenneth Froot، ومايكل كيم Michael Kim، وكينيث روغوف Kenneth Rogoff علىٰ معطيات حول الأَسعار في إنكلترا وهولندا منذ سنة 1272 لثماني سلع هي (الشعير، والزبدة، والجبنة، والبيض، والشوفان، والبازلاء، والفضة والقمح)[12]. ليست الانحرافات عن ما يُعرف بقانون السعر الواحد عبر القناة الإنكليزيَّة أصغر أَو أقل استمراراً مما كانت في الماضي علىٰ الرغم من التقدّم التقني الذي خفَّض تكاليف الشحن لهذه المواد بصورة أكيدة. لا بد أن تكون عوامل أخرىٰ تقاوم هبوط تكاليف النقل. والعوامل المرشحة لهذا هي العوائق التجارية بموجب السياسة الزراعية المشتركة الأوروبية. وارتفاع سعر صرف العملة بين الجلدر والجنيه[13].

العوامل المساهمة في الانحياز إلىٰ التجارة المحلية

تبقى الجغرافية والمسافات أكثر الموانع التجارية أهمية علىٰ نطاق أوسع مما يعتقد.

المسافة: لا تزال المسافة عائقاً هاماً للتجارة ولكنها ليست العائق الوحيد

بسبب تكاليف الشحن المادية. إن آثار العوائق المعلوماتيَّة تتناقص بالجوار وبالروابط اللغويَّة والثقافيَّة والتاريخيَّة والسياسيَّة. يمكن أن نطلق عليها «البُعد الاجتماعي». وقد سماها هانز لينمان Hans Linneman «البُعد النفسي»، وسمَّاها بيتر دريسديل Peter Drysdale وروس غارنوت «المقاومة الذاتيَّة»[14].

من بين البراهين الممكنة والكثيرة علىٰ أنَّ المسافة لا تزال هامَّة واحد من أبسطها، وهو الميل الملاحظ نحو التجمع الجغرافي للصناعات. وميل الصناعة نحو التمركز الإقليمي دليل علىٰ تكاليف النقل والاتصالات وعلىٰ زيادة العوائد في نطاق الإنتاج.

يحدث التكتل حتى في قطاعات حيث تهمل نفقات النقل المادِّي، كما في خدمات المال أو برمجيات الكومبيوتر. فتتمركز الشركات المالية في مانهاتن، وتتمركز شركات تكنولوجيَّات المعلومات في وادي السيليكون. وسبب اختيارهم للأماكن بجانب بعضهم بعضاً لا لأنهم يتاجرون بسلع مادِّيَّة في ما بينهم ويريدون توفير تكاليف النقل. ولكن الاتصال وجهاً لوجه معهم لتبادل المعلومات ومناقشة الصفقات.

تتكشَّف أهمية المسافة أيضاً بتحليل معطيات أَسعار السلع في مواقع مختلفة. فإن كانت تكاليف النقل والتكاليف الأخرىٰ لتنفيذ الأعمال علىٰ البُعد هامَّة، عندئذ يجب أن تقوم الموازنة بعمل أفضل وتحافظ علىٰ أَسعار السلع المتماثلة متناسقة عندما تباع هذه السلع في أماكن قريبة من بعضها أكثر مما لو كانت بعيدة عن بعضها. يدرس تشارلز إنجل Charles Engel وجون روجرز John Rogers الأَسعار في 14 قسماً استهلاكياً في ثلاث وعشرين مدينة كندية وأمريكية[15]. ويجدان أن البُعد بين مدينتين في أمريكا الشمالية يؤثِّر تأثيراً هامّاً في تغير أسعارهما النسبيَّة.

تبرز نتائج مماثلة بالنظر إلىٰ الكميات التجاريَّة بدلاً من النظر إلىٰ أَسعارها. يقول نموذج الجذب، تتناسب العلاقة التجاريَّة بين دولتين تناسباً

عكسياً مع البُعد في ما بينهما، وتتناسب طرداً مع إنتاج حجميهما، وذلك قياساً علىٰ قانون نيوتن للجاذبيَّة. وهذه تلائم المعطيات بصورة جيدة وهي مؤسَّسة بصورة جيدة علىٰ نظرية المتاجرة بالبضائع التي هي بدائل غير كاملة بشكل جزئي، لأن المعطيات متوافرة جداً (مجموعة من 100 دولة تعرض 100 × 99 = 9900 زوج من ملاحظات التصدير)، تميل الأخطاء المعياريَّة لأن تكون صغيرة.

تجد التقديرات الإحصائيَّة للبُعد آثاراً هامَّة في التجارة البينية. فعندما تزداد المسافة بين دولتين بمقدار 1٪ تقل التجارة في ما بينهما من 0,7 إلىٰ 1٪. هذه الإحصائية، مثل الإحصائيات الأخرىٰ التي ستأتي، تخص أثر العزلة وتثبت الآثار الأخرىٰ في التجارة كحجم الشركاء التجاريين. إن الخاصة الرائعة للتحليل العادي لأقل مربعات التراجع هي قدرته علىٰ فحص الأثر المستقل للعامل الواحد في الوقت الواحد[16].

المتغيرات الجغرافية الأخرىٰ

الميزات المادية الأخرىٰ للمواقع ذات آثار هامَّة. فالدّول المغلقة ترتبط بتجارة أقل بعامل يبلغ قرابة الثلث إذا اعتبرنا باقي العوامل متساوية. فالدّولتان المتجاورتان تتاجران معاً 80٪ أكثر من دولتين مثيلتين غير متجاورتين.

العوامل اللغوية والاستعماريَّة

تبقى العوائق اللغوية عقبة في وجه التجارة. فالدّولتان اللّتان تتكلّمان اللغة نفسها تتاجران مع بعضهما بنسبة 50٪ أكثر من دولتين لا تتكلّمان اللغة نفسها. فتعدّد اللغات هو أحد الأسباب التي تجعل التكامل الاقتصادي بعيداً من الكمال في الاتحاد الأوروبي.

كانت الروابط الاستعمارية هامَّة أيضاً تاريخياً. في سنة 1960 عندما بدأ تفكّك أكبر الإمبراطوريات الاستعماريَّة، كانت التجارة بين المستعمرات والقوىٰ

الاستعماريَّة أكثر مرتين أَو أربع مرَّات وسطياً من أي دولتين أخريين لا علاقة استعماريَّة بينهما[17]. هذا التأثير الذي انخفض من القمة السابقة في الفترة الاستعماريَّة، استمر بالهبوط في السبعينيَّات والثمانينيَّات. لكنه لم يختف بالفعل، إذا اشتملت العينة علىٰ مستعمرات صغيرة، فإن الوحدتين اللَّتين اشتركتا بالمستعمر نفسه تتاجران في ما بينهما بمعدل وسطي 80٪ أكثر من دولتين أخريين لم تكونا كذلك (ظل هذا حتى 1990). فضلاً عن ذلك إن كانت إحدىٰ الدّول من الاثنتين هي الدّولة المستعمِرة الأم، فالتجارة أكثر من 5 إلىٰ 9 مرات في التجارة بين دولتين ليستا كذلك[18].

العوامل العسكريَّة

لقد جرىٰ فحص الآثار في التجارة البينية في التحالفات السياسيَّة والعسكريَّة والحروب أيضاً. فمن الناحية النظرية والتجريبية (في إطار الجاذبية) ترتفع التجارة عموماً بين الدّول المتحالِفة وتنخفض إلىٰ الحدود الدنيا بين الأعداء الحقيقيين أَو المحتملين. ومفهوم أنَّه إذا كانت دولتان في حالة حرب، توجد آثار سلبية في التجارة بينهما. وترتفع إلىٰ 99٪ انخفاضاً في سنة 1965. والوضع النموذجي أكثر في 1990 إذا بلغ الانخفاض 82٪[19].

مناطق التجارة الحرَّة

تخفض الترتيبات التجاريَّة الإقليميَّة التعرفات الجمركيَّة والعوائق التجاريَّة الأخرىٰ في مجموعة من الدّول، علىٰ الرغم من وجود سلسلة من الترتيبات التجاريَّة المفضَّلة الخفيفة إلىٰ اتحادات اقتصاديَّة ناضجة تماماً. وغالباً ما يكون أعضاء هذه المجموعات مرتبطين ارتباطاً قوياً من خلال الجوار أَو اللغة المشتركة أَو من خلال روابط أُخرىٰ. ولكن لو ثبتنا هذه العوامل، في إطار الجاذبيَّة، فإن تشكيل مناطق تجارة حرَّة يزيد التجارة بمعدل 70٪ إلىٰ 170٪[20]. إن سوقاً مشتركة جدية، كالاتحاد الأوروبي، يمكن أن يكون لها آثار

كبيرة. ومع ذلك، يبقى في كل دولة عضو في الاتحاد الأوروبي انحياز كبير للمتاجرة ضمن تلك الدّولة.

الروابط السياسيَّة

قد يكون رأي اقتصادي ساذج، عندما تزال التعرفات الجمركية والعوائق التجاريَّة الصريحة الأُخرىٰ بين دولتين، وباعتبار العوامل الجغرافية الحاسمة في تكاليف النقل ثابتة، يجب أن تتحرَّك التجارة بسهولة عبر الحدود القوميَّة كما تتحرَّك ضمن هذه الحدود. لكن هذا بعيد جداً في واقع الحال. إن كانت وحدتان جغرافيتان تنتميان إلىٰ سيادة أمَّة نفسها كماهو الحال في فرنسا وأقسامها وراء البحار تكون التجارة ثلاثة أمثال تقريباً. وهكذا إن للعلاقات السياسيَّة بين الوحدات الجغرافية آثاراً أكبر في التجارة من عوامل مثل السياسات التجاريَّة الواضحة أَو العوائق اللغويَّة.

الدّول المشتركة

حتى بعد تعديل المسافة (بما فيها عدم التجاور) والعوائق اللغوية، لا تزال كل الدّول تظهر انحيازاً كبيراً نحو شراء البضائع المحلية أكثر من البضائع الأجنبيَّة. يقدّر شانغ جن واي Shang Jin Wei هذا الانحياز في دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية OECD؛ لقد تراجع هذا الانحياز تراجعاً طفيفاً مع مرور الزمن ولا يزال الانحياز هامّاً إحصائياً (علىٰ الرغم من أن الولايات المتحدة كان فيها أصغر انحياز من الجميع)[21].

توجد بعض المزايا العظيمة لوجود معطيات علىٰ مستوىٰ الولايات والمحافظات ضمن الدّولة. وقد نتمكَّن من التأكّد كيف تتأثَّر التجارة بين كيانين جغرافيين من خلال عضويتهما في اتحاد سياسي. لقد عرفنا أنَّه عندما تكون الوحدتان الجغرافيتان تشتركان بروابط كلفة مشتركة تزدهر التجارة بينهما بصورة واضحة. ويبقى أن نفكِّر أنَّه عندما تشترك وحدتان جغرافيتان بإرث ثقافي أَو

بنظام قانوني، فإن تجارتهما تزداد بذلك أكثر. ليست المعطيات متوافرة عموماً حول التجارة بين ولايات الولايات المتحدة، وأقسام اليابان، ومحافظات ألمانيا، ومقاطعات بريطانيا، أَو دوائر فرنسا. ولكن توجد معطيات حول التجارة التي تقوم بها المقاطعات الكندية في ما بينها. ومع الولايات الأمريكية الرئيسية. وهي تظهر انحيازاً قوياً للتجارة ضمن الأمَّة. فأونتاريو تصدِّر إلىٰ بريتش كولومبيا ثلاث مرَّات أكثر مما تصدِّره إلىٰ كاليفورنيا، مع أن الأخيرة يبلغ عدد سكَّانها عشرة أمثال عدد سكان بريتش كولومبيا. (الأرقام لسنة 1988).

طبَّق جون ماكالوم John MacCallum موديل الجاذبية علىٰ التجارة بين المقاطعات والولايات. فظهرت الآثار العادية للحجم والبُعد[22]. والنتيجة المذهلة هي أثر المتغير المزيف ليمثِّل عندما تكون الولايتان أَو المقاطعتان تقعان في نفس الدّولة. فمثل هاتين المقاطعتين تتاجران مع بعضهما اثنين وعشرين مرة أكثر مما تتاجر مقاطعة ولاية لكنهما يقعان علىٰ طرفي الحدود. ولقد جدَّد جون هيلي ويل John Helli Well هذا الاختبار ليعكس المعطيات تحت اتفاقية التجارة الحرَّة بين كندا والولايات المتحدة. ووجد أن عامل التميّز داخل كندا يصل إلىٰ معدل 21 في السنوات 1988 ـ 90[23].

النتيجة هي أن تتذكَّر ما توصل إليه إنجل Engel وروجرز Rogers في: ما هو عرض الحدود؟ فقطع الحدود الكندية ـ الأمريكية يضيف كثيراً إلىٰ متغير السعر النسبي بين مدينتين بقدر ما يضيفه قطع المسافة المادية من 2500 إلىٰ 10000 ميل ضمن أي من الدّولتين[24]. وهذا هو اتجاه المقاطعات الكندية في المتاجرة في ما بينها، والمدهش هنا أنَّها تتجه للمحافظة علىٰ العوائق التجاريَّة في ما بينها، ولم تستفد من الدستور كما فعلت الولايات المتحدة إذ يحفظ الدستور السياسة التجاريَّة حصراً علىٰ المستوىٰ الاتحادي. وأسباب هذا التحيّز للداخل الكندي في التجارة تشمل سهولة القيام بالأعمال في ظل النِّظام السياسي نفسه، وقطاع إعلانات ودعاية متحد، وسلاسل محالّ علىٰ مستوىٰ الأمَّة،

وشبكة طرق حديد بين شرق الدّولة وغربها. يشك جون هيلي ويل John Helliwell وجون ماكالوم John MacCallum «في أن الإجابات تقع في عشرات الروابط التعليميَّة والجغرافيَّة القائمة علىٰ روابط هجرة وروابط عائليَّة وتدعمها شبكات الانتقال والاتصال والتعليم وسهولة العناية الصحيَّة والحقوق التقاعدية، إن لم تكن بالكامل من شرب الشاي[25]». من المفروض أن تكون مصادر التحيّز داخل الأمَّة أقوى بالنسبة للدول الأُخرىٰ التي لا تشترك بجوار ثقافي أَو بعلاقات تجاريَّة متحرِّرة كما تفعل كندا والولايات المتحدة.

العملات

منذ القديم كان الشك في أن وجود عملات مختلفة، ولا سيما تذبذب أَسعار صرفها منذ أن توقف النظام المالي بريتون وودز Britton Woods في سنة 1971، هي عائق للتجارة العالميَّة والاستثمار العالمي. ويعود التذبذب في أَسعار الصرف إلىٰ فشل قانون السعر الواحد الملاحظ في سوق السلع. وعندما يلاحظ أن، مثلاً، التجارة الكندية والأمريكية هي أكثر بين مواطني كل دولة من التجارة بين الدّولتين، هذا في السياق حيث أُلغيت العوائق التجاريَّة والجغرافيَّة واللغويَّة، يبقى اختلاف العملات أحد المشتبهين الرئيسين. حتى وقت حديث كان من الصعب إيجاد دليل قوي علىٰ أن عوامل العملة لا تشجِّع التجارة والاستثمار. ويستخدم نموذج الجاذبية الآن لهذا الغرض[26]. فتبين أن إلغاء انحراف معياري واحد في تغير سعر الصرف ـ مثلاً من الوسطي 7٪ إلىٰ الصفر ـ يزيد التجارة بين دولتين بنسبة تقدَّر بـ 13٪. وأكثر من ذلك، فقد وجد روز Rose أن المضي في الطريق كله وتبنِّي عملة مشتركة بالمعنى الحرفي له تأثير كبير جداً: إنَّه يضاعف التجارة ثلاث مرَّات ونصفاً[27].

إن تنشيط التجارة والمال واحد من بضعة دوافع لتبنِّي عملات مشتركة أَو لمجموعات عملات من قبل عشرين دولة خلال العقد الماضي (بما فيهم أحد عشر عضواً في الاتحاد الأوروبي الاقتصادي والمالي في 1999).

ولكن في الوقت نفسه وجد العدد نفسه من العملات الجديدة نتيجة لتفكك الاتحاد السوفياتي السابق.

إجراءات تكامل السوق المالي

كان لدى الوفود التي اجتمعت في بريتون وودز سنة 1944 تصميم لنظام مالي عالمي لم يمنح الأسواق المالية صراحة الافتراض الممنوح للتجارة بالبضائع، وهو الفرض أن التكامل العالمي جيد بدون غموض وأن العوائق يجب أن تُزال بالسرعة الممكنة. وعلىٰ الرغم من أنَّ النظرية الاقتصاديَّة يمكن أن تضع قضية أنيقة لصالح التجارة بالأصول تماماً كالتجارة الحرَّة بالبضائع والخدمات، كانت الوفود علىٰ قناعة من خبرتها في الثلاثينيَّات بأن بعض درجات ضبط تحرَّكات رؤوس الأموال العالميَّة أمر مرغوب فيه. وظل الأمر كذلك حتى الانهيار النهائي في سنة 1973 لنظام أسعار الصرف الثابتة حيث أزالت ألمانيا والولايات المتحدة ضوابطهما المالية، وحافظت اليابان وبريطانيا علىٰ هذه الضوابط حتى نهاية السبعينيَّات، ولم تتحرَّر معظم الدّول الأوروبية الأُخرىٰ حتى نهاية الثمانينيَّات. وفتح كثير من دول السوق الوليدة الباب لتحركات رؤوس الأموال علىٰ نطاق واسع في التسعينيَّات (علىٰ الرغم من الأزمات الناجمة التي أقنعت بعض المراقبين بأن الوفود التي كانت في بريتون وودز قد تكون علىٰ حق بالمقام الأوَّل).

تظهر الاختبارات الخاصة بالأسواق المالية تكاملاً عالمياً تزايد بصورة كبيرة خلال السنوات الثلاثين الماضية لكنَّه أقل اكتمالاً مما هو مفترض. ينطبق هذا التعميم علىٰ الاختبارات القائمة علىٰ أساس الكمية بالإضافة إلىٰ الاختبارات القائمة علىٰ أساس السعر.

صحيح أن الحجم الإجمالي لتدفق رؤوس الأموال عبر الحدود أصبح كبيراً جداً. وربما كان الحجم الإجمالي لرقم المبيعات في أسعار صرف العملات الأجنبية، الإحصاء الواسع والمؤثِّر: 1,5 تريليون في اليوم علىٰ النطاق

العالمي في نيسان 1998، وهذا أكبر مائة مرة من حجم التجارة بالبضائع والخدمات. ولكن التدفق الصافي لرؤوس الأَموال أكثر أهمية من التدفق الإجمالي لمعظم الأغراض. وتدفق الأَموال الصافي اليوم أصغر كثيراً كحصة من الناتج المحلي العام مما كان في بريطانيا العظمى في فترة ما قبل الحرب العالميَّة الأولىٰ إلىٰ بلاد واسعة المساحة كالأرجنتين وأستراليا وكندا[28]. فضلاً عن ذلك، يناقش مارتن فيلدستاين Martin Feldstein وتشارلز هوريوكا Charles Horioka في ورقة عظيمة التأثير أن تدفق رؤوس الأَموال الصافية أصغر مما يتوقع المرء في عالم ذي تحرّكات مالية عالميَّة تامَّة: إن الدّولة التي تعاني من نقص في الوفر الوطني تتجه إلىٰ ممارسة هبوط مساو في الاستثمار أكثر من أن تعوض الفرق عن طريق القروض الخارجية[29]. وبالطريقة نفسها، إن المستثمرين في كل دولة يحافظون علىٰ نسبة أخفض في محافظهم علىٰ شكل تأمينات في سندات في دول أُخرىٰ من وضعها في محافظ جيدة التنوع، وهذا لغز معروف «بالانحياز الوطني»[30]. من الواضح أن المعلومات الناقصة وتكاليف العمليات لا تزال عوائق هامَّة في وجه الاستثمار عبر الدّول.

لقد تم فحص قدرة الموازنة علىٰ مساواة أَسعار الأصول أَو نسب الفوائد عبر البلاد وكان هذا الفحص واسعاً. قد يتوقع المرء أنَّه في حال غياب العوائق في وجه تدفق الأَموال عبر الحدود تستطيع الموازنة جعل أَسعار الفائدة متساوية. لكن الجواب يعتمد علىٰ الأموال الدقيقة التي تم فحصها. إن أَسعار الفائدة التي حذف منها عنصر خطر صرف العملات بواسطة غطاء مسبق للسوق، هذه الأَسعار متساوية بالفعل عبر الحدود في ما بين الدّول الصناعية، وهذا يبين أن ضوابط تحرّكات رؤوس الأَموال لديها ضوابط قليلة. لكن يبدو أن أسعار الفائدة ليست متساوية في الدّول عندما يجري تعديلها بحسب توقع تغير أَسعار الصرف أكثر من أَسعار صرف مسبقة، وأَسعار الفائدة ليست متساوية قطعاً عندما يجري تعديلها بنسب التضخم المتوقعة. ومن الواضح أن فروق العملات هامَّة جداً لدرجة تكفي لوضع إسفين بين نسب الربح المتوقعة.

والأكثر من ذلك، تؤثّر بقية تكاليف العمليات أَو المعلومات الناقصة ظاهرياً على الاستثمار في الأصول عبر الحدود[31]. فهي لا تشجع المستثمرين إطلاقاً علىٰ الاستثمار في بعض الأصول الحسَّاسة للمعلومات، كالرهنيات، عبر الحدود القومية. وفضلاً عن ذلك، يضيف خطر الدّولة التي تضع إسفين العقوبات الكبيرة لجميع الاستثمارات في الدّول النامية.

باختصار، علىٰ الرغم من كون الأَسواق العالميَّة التي تشبه إلىٰ حد كبير أَسواق البضائع، قد أَصبحت أكثر تكاملاً في العقود الحديثة، فإنَّها قطعت مسافة أقل من المسافة إلىٰ التكامل التام مما كان يعتقد علىٰ نطاق واسع. ليست العولمة جديدة وليست كاملة وليست قابلة للرجوع.

أثر العولمة الاقتصاديَّة

ما هي آثار العولمة ومزاياها؟ يجب أن نعترف بالدرجة المنخفضة من التأكّد في إجاباتنا. ويصبح من الصعب فصل السبب والنتيجة. وفضلاً عن ذلك، عندما نوسع قائمة الأهداف إلىٰ ما وراء تضخيم الدخول القوميَّة، تبدأ أحكام القِيَم باللعب. لكن النظرية الاقتصاديَّة والبحث التجريبي لا يزال لديهما الكثير للإسهام به.

أثر التجارة في مستوىٰ الدخل الحقيقي ونموه

لماذا يعتبر علماء الاقتصاد التكامل الاقتصادي هاماً جداً؟ ما هي فوائد التجارة الحرَّة للاقتصاد؟

الحالة النظرية للتجارة

تعلمنا النظرية الاقتصاديَّة الكلاسيكيَّة أنَّه توجد مكاسب قوميَّة من التجارة مرتبطة بعبارة «المزية النسبية». وخلال العقدين الماضيين طوّر المثقفون «نظرية تجارة جديدة». تقترح هذه المدرسة وجود فوائد إضافية من التجارة، يسمونها دينامية. سندرس كل نظرية بدورها.

تعود النظرية الكلاسيكيَّة إلىٰ آدم سميث Adam Smith وديڤيد ريكاردو David Ricardo. يناقش آدم سميث بأن التخصّص ـ تقسيم العمل ـ يشجع الإنتاجية. ويوسع ديڤيد ريكاردو هذا المفهوم ليشمل التجارة بين الدّول. والفكرة هي أن التجارة تسمح لكل دولة بالتخصّص في ما تصنعه بصورة جيدة وهي بذلك تضخم قيمة ناتجها. فإن قامت الحكومة بتقييد التجارة، تُهدر مواردها في إنتاج سلع كان يمكن أن تستوردها بشكل أرخص عما تستطيع إنتاجها محلياً.

ماذا يحدث لو كانت دولة ما تبزُّ الجميع في إنتاج كل السلع؟ إن المناقشة لصالح التجارة الحرَّة لا تزال هي الرابحة اليوم. كل ما هو مطلوب أن تكون دولة ما أقل مهارة نسبياً من دولة أُخرىٰ في إنتاج سلعة ما حتى تستفيد من التجارة. هذه هي عقيدة «المزية النسبية» ـ المبدأ الأساسي (وربما عكس الحدس) للنظرية التجاريَّة العالميَّة. والأمر مفهوم لمايكل جوردان Michael Jordan حين يدفع أجراً لشخص يقص له العشب في مرجه حتى وإن كان جون يستطيع أن يقوم بهذا العمل بشكل أفضل، لأن لجون مزية نسبية في كرة السلَّة أكبر من قصّ العشب في المرج. وبصورة مماثِلة يكون الأمر مفهوماً بالنسبة للولايات المتحدة حين تدفع لاستيراد سلع تستطيع إنتاجها دول أُخرىٰ بصورة مجدية أكثر (كالملابس والأحذية والزراعات المدارية والإلكترونيات الاستهلاكيَّة) لأن الولايات المتحدة ذات مزية نسبية في سلع أُخرىٰ (الطائرات والخدمات المالية والقمح وبرمجيات الكومبيوتر).

هذه هي الفكرة الكلاسيكيَّة لفوائد التجارة الحرَّة موجزة. وللنظريَّة الكلاسيكيَّة صفتان رئيسيتان تستحقان الإشارة، الأولىٰ، إنَّها تفترض المنافسة الكاملة، وعوائد ثابتة، وتقنيات ثابتة، وهي افتراضات ليست واقعية تماماً. والثانية، إن المكاسب من التجارة ثابتة في طبيعتها أساساً، بمعنى إنَّها تؤثِّر في

مستوىٰ الدخل الحقيقي. إن إلغاء العوائق التجاريَّة تزيد الدخل، لكن هذا علىٰ طول خطوط الزيادة لمرة واحدة.

وماذا عن «نظريَّة التجارة الجديدة»؟ إنَّها أكثر واقعية من النظريَّة الكلاسيكيَّة فهي تأخذ في اعتبارها المنافسة غير الكاملة، وزيادة العوائد والتكنولوجيَّات المتغيِّرة. يمكن النظر إليها علىٰ أنَّها تعطي دعماً متساوياً، أَو أكبر، للسياسات التجاريَّة الحرَّة التي اتبعتها الولايات المتحدة في فترة ما بعد الحرب، أي، مفاوضات، ثنائية ومتعددة الجوانب لتقليل العوائق التجاريَّة، مما فعلته النظريَّة الكلاسيكيَّة[32].

للتأكد، تقول هذه النظريات إنَّه في ظروف خاصة جداً ومعينةً تستطيع دولة ما أن تمضي بالتدخّل (مثلاً معونات لقطاعات استراتيجيَّة) شريطة أن تتخذها الحكومة بشكل صحيح تماماً، وشريطة أن تكون أعمال الدّول الأُخرىٰ قد أُخذت بالشكل الذي قُدِّمت فيه. ولكن تتجه هذه النظريات أيضاً لأن يكون لها خاصية أن العالم، الذي يقوم الجميع فيه بالمساعدة سريعاً، هو عالم يصبح فيه الجميع أسوأ حالاً، وأننا جميعاً نكون في وضع أفضل إذا كنا نستطيع الاتفاق علىٰ تحديد المعونات أَو التدخلات الأُخرىٰ.

إن الاتفاقات الثنائية أَو متعددة الجوانب حيث تقوم الأطراف الأُخرىٰ بتقديم الإذعانات لمنتجات الولايات المتحدة مقابل أية إذعانات تقدمها الولايات المتحدة، هي في النهاية، الأنواع الوحيدة من الاتفاقات التي تعقدها الولايات المتحدة. بالفعل، تطلب معظم الاتفاقيات التجاريَّة الحديثة (اتفاقية التجارة الحرَّة لأمريكا الشمالية، ووصول الصين إلىٰ منظمة التجارة العالميَّة) من شركاء الولايات المتحدة تخفيضات في عوائق الاستيراد، أكثر مما تطلب من الولايات المتحدة. والسبب أن عوائقهم كانت أكبرمن عوائق الولايات المتحدة كبداية. لكن النتيجة الطبيعيَّة أن مثل هذه الاتفاقيات تزيد من الطلب الخارجي علىٰ منتجات الولايات المتحدة أكثر مما تزيد من طلب الولايات المتحدة علىٰ

المستوردات. نتيجة لذلك يحتمل أن تستفيد الولايات المتحدة من «شروط آثار التجارة» الإيجابيَّة. . وتضيف هذه فقط إلىٰ الفوائد المعتادة لزيادة كفاءة الإنتاج ومكاسب المستهلكين من التجارة العالميَّة.

أكثر من ذلك، عندما لا تخشى الحكومة استخدام العوائق التجاريَّة من الخارج، يقوم التدخل بالممارسة القائمة علىٰ معلومات ناقصة وتفسده جماعات المصالح. والسعي لإلغاء التدخّل القطاعي المعين هو أكثر الطرق فعالية في تثبيط سلوك البحث عن الأجرة. إن العولمة تزيد عدد المتنافسين العاملين في الاقتصاد. ولا يخفض هذا العمل سلطة احتكار التشويش في السوق (والذي لولا ذلك لمارسه برفع الأَسعار) فحسب، بل إنَّه يستطيع أيضاً تخفيض سلطة التشويش المادية في الحلبة السياسيَّة (والذي يمارسه بواسطة جماعة الضغط).

والأهم من ذلك، إن معظم النظريات التجاريَّة الجديدة تقدم سبباً للاعتقاد بأن للانفتاح أثراً دائماً علىٰ معدل نمو الدّولة، وليس علىٰ مستوىٰ الناتج المحلي العام فقط. فالنسبة العالية للتفاعل الاقتصادي مع باقي العالم تسرع في استيعاب التكنولوجيَّات المتقدمة، وأفضل الممارسات الإدارية العالميَّة يحفز التجديد وخفض التكاليف وينافس الاحتكار لطرده.

تأتي هذه المكاسب الديناميَّة من عدد من المصادر. وتشمل هذه المصادر الفوائد من حجم السوق الكبيرة، وتشجيع المنافسة. وتشمل المصادر الأُخرىٰ التطورات التكنولوجية من خلال زيادة الاتصالات مع الدّول الخارجية وأساليبها المغايرة في الإنتاج. يمكن أن تأتي هذه الاتصالات، مثلاً، من استثمار مباشر من شركات أجنبيَّة ذات معلومات مناسبة أَو بالتعرّض لبضائع مستوردة تجسِّد التطور التقني في الخارج. ولكل من هذه العناصر التجاريَّة العالميَّة والتفاعل العالمي أثر في تطوير النمو في الاقتصاد الوطني. وعندما ينضم ذلك إلىٰ الآثار الثابتة، فلا مجال للسؤال عن أن جهود الأَسواق المفتوحة، عندما تنجح، ستعطي أرباحاً هامَّة.

الحالة التجريبيَّة للتجارة

لا يكون وضع النظرية الجواب الكامل عن السؤال، «كيف نعرف أن التجارة جيِّدة؟» نريد برهاناً تجريبياً. لقد أجرىٰ علماء الاقتصاد اختبارات إحصائيَّة للعوامل الحاسمة في معدلات نمو الدّول. الاستثمار في رأس المال المادي والاستثمار في رأس المال البشري هما العاملان اللَّذان يبرزان علىٰ أنهما الأقوىٰ. ولكن عوامل أُخرىٰ هي أيضاً هامَّة. لقد وجدت التقديرات في معادلات النمو دوراً للانفتاح، يقاس مثلاً بمبلغ الصادرات والواردات كحصَّة من الناتج المحلي العام. ينظر، ديڤيد رومر David Romer وأنا إلىٰ المقطع العرضي لمائة دولة خلال الفترة منذ 1960[33]. سعت الدراسة لمعالجة همٍّ كبير حول السببيَّة الآنية بين النمو والتجارة: هل يؤدي الانفتاح إلىٰ النمو، أم هل يؤدي النمو إلىٰ الانفتاح؟ وجدنا أن أثر الانفتاح في النمو أقوىٰ عندما نصحح للآنية بالمقارنة مع تقديرات قياسيَّة.

يراوح تقدير أثر الانفتاح في دخل الفرد من 0,3 إلىٰ 3,0[34]. فكِّر برقم صحيح في الوسط مثل 1,0. إن الزيادة في انفتاح الولايات المتحدة منذ الخمسينيَّات هي 0,12. وضرب الرقمين معاً يتضمَّن أن التكامل الزائد كان له أثر يقدّر بـ 12٪ علىٰ دخل الولايات المتحدة. وبصورة أكثر درامية، قارن طراز بورما بتناسب يصل إلىٰ ما يقرب الصفر، مقابل طراز سنغافورة بتناسب يصل إلىٰ 100٪. فتقديراتنا التقريبيَّة، والمُعامِل 1,0، تتضمَّن أن دخل سنغافورة أعلىٰ 100٪ من دخل بورما نتيجة لانفتاحها. الحقيقة أن التجارة تستطيع التأثير في معدل نمو الدّولة ـ كمقابل لتأثيرها في مستوىٰ الناتج المحلي العام لها في شكل سريع ـ تجعل قضية تحرير التجارة أكثر إلزاماً حتى.

إن أحد ردود الفعل الممكن هو أن هذه المعالجة تظهر فوائد النمو فقط من التجارة المتأثِّرة بالجغرافية ولا تحتاج بالضرورة إلىٰ الاتساع إلىٰ آثار التجارة المتأثِّرة سياسياً[35]. لكن نقَّاد العولمة المعروفين يبدو أنَّهم يفكِّرون أن المشكلة

هي زيادة التجارة العالميَّة والتمويل العالمي بغضّ النظر إن كانت تأتي من التقدّم التقني أَو تحرير الحكومة. وبينما يضع النقَّاد مقولتهم ضد رفع الحكومة لسياسة الحواجز، فإنَّهم نادراً ما يحدِّدون التفاعلات عبر الحدود الناجمة عن الجغرافية أَو التجديدات التقنيَّة في النقل علىٰ أنَّها مفيدة اقتصادياً.

الاعتماد المتبادل الاقتصادي الجمعي

يزيد التكامل التجاري والمالي عموماً من نشر دورة تقلب الأعمال في ما بين الدّول. وتعطي أَسعار الصرف العائمة الدّول نوعاً من العازلية ضد تقلّبات الدّول بعضها بعضاً. فعندما تتكامل أَسواق المال بصورة عالية، فلا تعطي الأَسعار العائمة عزلاً كاملاً كما بدا ظاهراً بعد ترابط 1973 في ما بين الاقتصاديات الصناعية الكبرىٰ. ولكن يمكن أن يكون الانتشار العالمي جيداً لدولة ما بقدر ما يكون سيئاً، كما يحدث عندما تنتقل تطورات محلية متعاكسة انتقالاً جزئياً إلىٰ باقي أنحاء العالم. يستطيع الميزان التجاري أن يعمل كمنظِّم آلي هام للناتج والعمالة، فيحسِّن زمن الكساد، ويسيء زمن الازدهار.

إن عدوىٰ الأزمات المالية مقلقة أكثر. فعقد التسعينيَّات وحده وفير بالأمثلة: أزمات سنتي 1992 و1993 في آلية الصرف الأوروبية، و«أزمة التيكويلا» التي بدأت بانخفاض سعر البيزو المكسيكي في سنة 1994، وأزمات شرق آسية والأسواق الصاعدة في جميع أنحاء العالم من تموز 1997 إلىٰ كانون الثاني 1999. من الواضح أنَّه عندما تكون في دولة ما أزمة فإنَّها تؤثِّر في الدّول الأُخرىٰ. يوجد إجماع بين علماء الاقتصاد الآن أكثر مما كان من قبل أنَّه ليس كل الارتفاع الملاحظ، ولا ترابطه عبر الدّولة، يمكن أن يُعزىٰ إلىٰ أن أَسواق رؤوس المال الفعَّالة تعاقب أَو تكافئ الدّول علىٰ أساس تقييم عقلي للأُسس الاقتصاديَّة. من الصعب أن نحقِّق العدل في فقرة واحدة من المناقشة التي هي كبيرة وقويَّة كالجدل حول مضامين الرفاه لتدفق رؤوس الأَموال العالميَّة

المتزايدة. ويبقى من وجهة نظر الغالبية أن الدّول تتحسَّن بالأَسواق المالية الحديثة للعولمة أكثر من دون هذه الأَسواق[36].

أثر التجارة في الأهداف الاجتماعيَّة الأُخرىٰ

يعترف كثيرون ممن يخشون العولمة أن للتجارة آثاراً إيجابيَّة في الدخل القومي لكنَّهم يرتابون في أن لها آثاراً عكسيَّة في أهداف أُخرىٰ ذات قيمة عالية كحقوق العمَّال وسلامة الغذاء والثقافة... إلخ. سندرس هنا قيمتين فقط، وباختصار، المساواة والبيئة[37].

توزّع الدخل

يمكن أن تكون التجارة والاستثمار العالميين مصدراً قوياً للنمو في الدّول الفقيرة، وذلك بمساعدتها علىٰ اللحاق بتلك الدّول التي تتقدّمها في عطاءات رأس المال والتكنولوجيا. وكان هذا عنصراً هاماً في النمو الباهر في دول شرق آسيا في ما بين الستينيَّات والتسعينيَّات والذي يبقى معجزة حتى في ما بعد الأزمات المالية في سنة 1997. وبتنشيط التقارب، تستطيع التجارة أن تساعد في تخفيض اللامساواة الضخمة في الدخل علىٰ مستوىٰ العالم. لكن معظم هؤلاء المهتمين بتوزيع الدخل يبدو أنَّهم أكثر اهتماماً بالمساواة ضمن الدّولة من المساواة العالميَّة.

في كتاب نموذجي حول نظرية «التجارة العالميَّة، موديل هيكشر ـ أوهلن ـ ساموبلسن ـ Heckscher - Ohlin - Samuelson» ـ تنبؤ مدهش حول توزع الدخل في دولة ما. وهو أن العوامل النادرة في الإنتاج سوف تخسر من التجارة، والعوامل الوفيرة سوف تستفيد. وهذا يعني، أن الدّول الغنية، تلك التي فيها رأسمال ومهارات سوف تستفيد علىٰ حساب العمَّال غير المهرة، بينما في الدّول الفقيرة سيكون الأمر عكس ذلك. ويصح التنبؤ نفسه علىٰ حركة رأس المال العالمي (أَو، من أجل ذلك الأمر، لحركة العمالة العالميَّة). ولكن كان

صعباً جداً أن نجد دليلاً مباشراً كبيراً على تنبؤات النموذج خلال فترة ما بعد الحرب، بما فيها آثار التوزّع ضمن الدّول الغنية أَو الفقيرة. ومن المحتمل أكثر، أن تكون ظواهر التكنولوجيا المتغيِّرة، والتجارة في الصناعة، وارتباط العمَّال بصناعات معينة أكثر أهمية من عامل العطاءات التي في قلب نموذج هيكشر ـ أوهلن ـ ساموبلسن[38].

في الولايات المتحدة ازدادت الفجوة بين الأجور المدفوعة للعمَّال المهرة والأجور المدفوعة للعمَّال غير المهرة بمقدار 18 نقطة مئوية ما بين سنة 1973 وسنة 1995 ثم تساوتا. والخوف أن تكون التجارة مسؤولة عن جزء من هذه الفجوة، وذلك بجعل العمَّال المهرة يستفيدون أكثر من العمَّال غير المهرة. من تقديرات إحصائيَّة عامَّة ـ وهي عادة تفرض الهيكل النظري أكثر مما تفحصه ـ إن ما بين 5 و30 بالمائة من الزيادة يمكن أن يعزى إلى التجارة. فالتقنية، وهي التي تزيد الطلب على العمَّال المهرة أسرع من العرض، هي العامل الرئيسي المسؤول عن البقية[39]. إن أحد أعلى التقديرات هو أن التجارة تساهم بثلث الزيادة الصافية في فجوة الأجور[40].

ومن عينة تتألَّف من ثلاث وسبعين دولة يجد تشاكابارتي Chakabarti أن التجارة تخفض فعلاً عدم المساواة بحسب ما يقيسها معامل جيني Gini. وتصح هذه العلاقة لكل فئة من فئات الدخل[41].

واضح أن توزع الدخل تقرِّره عوامل كثيرة وراء التجارة. أحدها سياسات لإعادة التوزيع تتخذها الحكومات. وفي بعض الحالات تبدأ هذه السياسات بجهد للتعويض أَو «لشراء» مجموعات يعتقد أنَّها تأثَّرت بالتجارة بصورة عكسية. لكن ظاهرة أكثر أهمية هي اتجاه لاستخدام إعادة توزيع أكبر عندما تصبح الدّول أغنى.

هناك نظام تجريبي قائم منذ زمن طويل، وهو ميل اللامساواة بالدخل للإساءة في المراحل الأولى للنمو ومن ثم للتحسين في المراحل اللاحقة.

والتفسير الأصلي لهذه الظاهرة المعروفة «بمنحنى كوزنيتس»، كان عليه أن يتعامل مع هجرة الريف إلىٰ المدينة[42]. لكن تفسيراً حديثاً عاماً مفاده أن إعادة توزيع الدخل «جيد جداً»، وهو شيء تختاره المجتمعات لتشتري منه أكثر، حتى بكلفة ما للدخل الجماعي، عندما تصبح غنية لدرجة كافية تمكِّنها من دفع القيمة. إن كان هذا صحيحاً، يتوقع أن تزيد التجارة المساواة وذلك بزيادة الدخل الجماعي.

البيئة

يصح منطق مماثل وهو أن التجارة والنمو يمكن أن يكونا عاملين جيدين للبيئة، عندما تجتاز الدّولة مستوىٰ معيناً من دخل الفرد. فقد وجد جين غروسمان Gene Grossman وآلن كروغر Alan Krueger ما يسمَّى بمنحنى كوزنيتس البيئي Kuzents: نمو سيئ لتلوث الهواء والماء في المراحل الأولية للتصنيع ثم تخفيض للتلوث في ما بعد عندما تصبح الدّولة غنية بدرجة كافية تستطيع معها دفع تكاليف تنظيف بيئتها[43]. وتبع ذلك كتابات كثيرة[44]. والنقطة الرئيسيَّة هي أن الرغبات الشعبية لا تحتاج إلىٰ ترجمة آلية إلىٰ نوعية بيئيَّة، بل إن تدخّل الحكومة أمر مطلوب عموماً لمعالجة الأشياء الخارجية.

يندهش كثيرون لفكرة أن التجارة جيدة للبيئة. وتصح بدلاً منها فرضية التخلّص من التلوث إذ تشجع الشركات علىٰ وضع نتاج القطاعات عالية التلوث في دول ذات تعليمات بيئية متدنية حتى تبقى الشركات منافِسة. ولكن يقترح بحث لعلماء الاقتصاد أن تنظيم البيئة ليس عاملاً حاسماً في قدرة الشركات علىٰ التنافس عالمياً. فضلاً عن ذلك، إن الجري المعاكس للخوف من «السباق إلىٰ القاع» هو نقطة تحسين باريتو Pareto: تسمح التجارة للدولة بالحصول علىٰ الكثير من أهدافها مهما كانت بما في ذلك الدخل الأعلىٰ مقاساً بالسوق لمستوىٰ معين من نوعية البيئة، أو بيئة أفضل لمستوىٰ معيَّن من الدخل. وفي نموذج آخر يجمع الآثار المختلفة للتجارة بما فيها طريقة القياس وتركيب

الناتج. يقدر ورنر آنتويلر، Werner Antweiler، وبرايان كوبلاند Brain Copeland وإم. سكوت تيلر M. Scott Taylor إن زاد الانفتاحُ الناتج العام المحلي بنسبة 1٪، فإنَّه يقلِّل تركيز ثاني أكسيد الكربون بنسبة 1٪. والنتيجة إذن لأن التجارة جيدة للنمو فإنَّها مفيدة للبيئة أيضاً[45]. تأتي الدراسات الإيكونومترية على آثار التجارة والنمو في البيئة بنتائج مختلفة باختلاف الإجراءات المستخدمة للتلوث. هناك حاجة إلى معايير بيئية أُخرى. من الصعب أن نتصوّر أن تكون التجارة أي شيء ما عدا سيئة لبقاء الأخشاب القاسية في الغابات المدارية أَو الأجناس المهدَّدة بالانقراض دون تدخّل جهود حكومية كبيرة لحمايتها[46].

إن الحجّة أن الدّول الغنية سوف تتخذ خطوات لتنظيف بيئتها تصح فقط لقضايا ذات آثار محلية ـ حيث تكون الأشياء السيئة كالدخان والغبار Smog أَو تلوث الماء، خارجية بالنسبة للشركة أَو المنزل، لكنها داخليَّة بالنسبة للدولة. لكن بعض الأشياء الخارجية البيئية التي لقيت اهتماماً متزايداً في العقود الأخيرة هي عالميَّة. التنوع الحيوي، وصيد السمك الجائر، ونفاد الأوزون، والغازات الصادرة بتأثير البيت الزجاجي هي أربعة أمثلة. إن طناً واحداً من ثاني أكسيد الكربون يعطي الأثر نفسه في تسخين العالم بغضِّ النظر عن أي مكان صدر منه. ففي هذه الحالات تستطيع الدّول منفردة أن تفعل القليل لتحسين البيئة بغضِّ النظر عن مدى اهتمام شعوبها أَو فاعلية حكوماتها. ولكل من هذه الأسباب الأربعة ناقشت الحكومات معاهدات عالميَّة في محاولة للتعامل مع هذه المشكلة. لكن محاولة التعامل مع نفاد الأوزون فقط، معاهدة مونتريال، هي التي لاقت نجاحاً كبيراً.

هل الانطباع الشعبي إذن صحيح، وهو أن التجارة والمال العالميين يزيدان من الخارجيات البيئية العالميَّة؟ نعم، ولكن بمعنى فقط أن التجارة والمال ينشِّطان النمو الاقتصادي. صحيح لو كان البشر لا يزالون بضعة ملايين

ويعيشون في فقر فترة ما قبل التصنيع، فإن ظاهرة صدور الغاز من البيت الزجاجي لن تكون قضية كبيرة. التصنيع يؤدي إلىٰ تدهور البيئة، والتجارة جزء من التصنيع. ولكن في النهاية، الكل يريدون التصنيع ولو لأنفسهم علىٰ الأقل. وإفقار النفس المتعمّد ليس خياراً واعداً. عندما يتم الاعتراف بهذه النقطة، لا يوجد شيء خاص بالتجارة بالمقارنة مع المصادر الأُخرىٰ للنمو الاقتصادي: تراكم المال، وهجرة الريف إلىٰ المدينة والتقدّم التقني.

يخشى خصوم معاهدة كيوتو Kyoto في الكونغرس الأمريكي إن وافقت الدّول الصناعيَّة علىٰ تحديد إصدار غاز الفحم وغازات البيت الزجاجي الأُخرىٰ فسوف يكون لذلك أثر عكسي علىٰ المنافسة الاقتصاديَّة الأمريكية مقابل الدّول النامية التي لا تشملها الاتفاقية بعد. وهذا صحيح جزئياً: فالقطاعات الأمريكية ذات الفحم الشديد سوف تعاني من آثار عكسية. لكن قطاعات أمريكية أُخرىٰ سوف تتأثَّر إيجابياً. وذلك بالمتاجرة مع الدّول التي لم تشترك. القضية الحقيقيَّة ـ أن السبب الرئيسي لحاجتنا إلىٰ مشاركة الدّول النامية في اتفاقية تغيير المناخ العالمي ـ هي أن الدّول الصناعية (بدون ذلك) سوف يكون لها أثر صغير في إصدارات الغازات العالميَّة خلال العقود المقبلة، حتى وإن كانت راغبة في التعاون وتحمّل التكاليف الباهظة التي ستدخل في إعادة تركيب اقتصادياتها في الطاقة. لكن هذه النقطة لا علاقة لها بالتجارة. فإن الأمر نفسه سيكون في عالم بدون عولمة اقتصاديَّة.

ملخص الاستنتاجات

يقدِّم هذا الفصل إجابات واثقة عن أسئلة حول مدىٰ ومصادر العولمة الاقتصاديَّة، ويقدِّم إجابات معتدلة الثقة عن أسئلة حول آثارها.

يتكامل العالم بصورة متزايدة من حيث التجارة والأموال منذ نهاية الحرب العالميَّة الثانية، بسبب انخفاض تكاليف الاتصالات وتراجع العوائق الحكومية. لكن الظاهرة ليست جديدة وليست كاملة. فقد كانت العولمة أكثر درامية في

نصف القرن الذي سبق الحرب العالميَّة الأولى، وكثير من التقدم الحاصل في النصف الأخير من القرن كان مجرد عكس الإنغلاق الذي جاء فيما بين الفترتين. وفي اعتبار آخر، لا تزال العولمة بعيدة جداً عن كونها كاملة. وخلافاً للانطباعات الشائعة، لا تزال حدود الدّول والجغرافية تعيق التجارة والاستثمار بشكل كبير. وبحساب بسيط لنسبة التجارة إلىٰ الناتج العام، نجد أنَّه ينبغي أن تزيد ست مرات قبل أن يصبح صحيحاً أن التجارة الأمريكية مع العالم هي كتجارتها المحليَّة. ومثال علىٰ العوائق اختلاف العملات واللغات والأنظمة السياسيَّة، ولكل منها آثار معيقة للتجارة مقدّرة إحصائياً إضافة إلىٰ بقية الآثار الهامَّة للمسافة والحدود والمتغيِّرات الجغرافيَّة والسياسات التجاريَّة.

كانت مناقشة الفصل لآثار العولمة الاقتصاديَّة مختصرة جداً. وكانت النظرية والبرهان داعمين لفرضية أن للتجارة آثاراً إيجابيَّة علىٰ الدخل الحقيقي. ولهذا يعتقد علماء الاقتصاد بأهميَّة السماح لعملية التكامل العالمي بأن تستمر، وخاصة من أجل تلك الدّول التي لا تزال فقيرة.

يمكن أن تكون الآثار في القِيَم الاجتماعيَّة غير الدخول مجتمعة إيجابيَّة أَو سلبية، وذلك بالاعتماد علىٰ التفاصيل، ولا يعطي الدليل الإحصائي دائماً إجابات محددة حول خط القاع. في الحالتين الأكثر دراسة: توزيع الدخل والتلوث البيئي، يبدو أنَّه يوجد شكل تسوء فيه الأشياء في المراحل الأولية من التصنيع، ولكن بعد ذلك تبدأ الأمور بالتحسّن بمستويات أعلىٰ من الدخل. وتختار المجتمعات التي تصبح غنية من حيث الناتج المقاس بالسوق، طرقاً أُخرىٰ أيضاً لتحسين نوعية حياتها. ومن الممكن أن يتسع المبدأ نفسه ليشمل القِيَم غير الاقتصاديَّة كالسَّلامة وحقوق الإنسان والديمقراطية. بالاختصار، يوجد سبب يجعلنا نأمل أن يكون للتجارة أثر مفيد غير مباشر يأتي من الأثر الإيجابي للتجارة في الدخل، بعيداً عن الآثار المختلفة المباشرة للتجارة في القِيَم غير الاقتصاديَّة.

تبقى الأسئلة حول الحكم العالمي إلىٰ فصول لاحقة في هذا الكتاب. لكنني سأختم بملاحظة حول موضوع معايير العمَّال والبيئة التي أثارت تظاهرات حامية في تشرين الثاني من سنة 1999 عند اجتماع منظَّمة التجارة العالميَّة في سياتل. إن «حيرة» عالميَّة ثلاثية تتألَّف من السيادة، والتنظيم، والتكامل قد لوحظت: يمكن للدولة أن يكون لها اثنان من هذه الأهداف المرغوبة، لكنَّها لا تستطيع أن يكون لها الثلاثة معاً. هل يعني هذا أن العولمة تعيق دول السيادة من اختيار أنظمتها العمالية والبيئية؟ ربما، لكن هموماً عبر الحدود كعمل الأطفال، وتعريض الأجناس للانقراض، وإصدار غازات البيت الزجاجي لا تنشأ من التجارة والاستثمار العالميين. هذه المشكلات موجودة حتى بدون تجارة. تنشأ هذه الهموم من نوع من العولمة غير اقتصادي ـ يتوجب فيه التعامل مع نشر المعلومات والأفكار بصورة أكثر ـ وسوف يناقش في فصول أُخرىٰ من هذا الكتاب. يفترض أن المتظاهرين لا يفضِّلون إيقاف هذا النشر. ولكن في تلك الحالة لن يفيد إغلاق العولمة الاقتصاديَّة أيضاً.

ليست التجارة العالميَّة ولا المؤسَّسات العالميَّة، كمنظَّمة التجارة العالميَّة، عوائق في طريق معالجة هذه الهموم. علىٰ العكس من ذلك، إن العائق للجهود المتعددة الأطراف لحماية البيئة العالميَّة، كتصديق معاهدة كيوتو Kyoto حول تغيير المناخ، هو السيادة الوطنية بالضبط، مع فشل المواطنين في كل دولة في الاتفاق في ما بينهم علىٰ الأولويات التي يجب علىٰ مجتمعاتهم أن تضعها فوق الفوائد البيئيَّة. هذان العائقان ـ الانشغال بالسيادة الوطنية والاختلافات الداخليَّة ـ هما، من المضحك، أسوأ في الولايات المتحدة من أي بلد آخر. ليس العائق للعمل العالمي في مجال البيئة، كما بدا أن معظم المتظاهرين في سياتل يعتقدون، هو تجاوز المؤسَّسات متعدِّدة الأطراف «كمنظَّمة التجارة العالميَّة» للسيادة.

ملاحظات

(1) جيفري فرانكل، «Regional Trading Blocs in The World Trading System», (Washington Institute for International Economics, 1997)، فصل 3.

بول كروغمان، «Growing World Trade: Causes and Consequences»، ص 327 ـ 362 (Brookings Papers on Economic Activity, No. 1 (1995).

يؤكد كروغمان أن الكثير من أكثر التقدم التكنولوجي الهام حدث قبل 1870، كالسفن ذات الجسم الفولاذي، والدافع البرغي، والبرق عبر الأطلسي. «ويعلق كوبر على بول كروغمان: «Growing World Trade: Causes and Consequences,» (Brookings Papers on Economic Activity no. 1 (1995) ص 363 ـ 368.

ويقول إن التقدم التكنولوجي في هذا القرن كان له أثر أكبر مما يعترف كروغمان كما يفعل مايكل بوردو، وباري إيشنغرين، ودوغلاس ايرون، «Is Globalization Today Really Diffrent Than Globalization a Hundred Years Ago? (Brookings Trade Forum) (Brookings, 1999) ص 1 ـ 65.

(2) ألبرتو أليسينا، إيزيكو سبولاور، ورومان ويزيارغ، «Economic Integration and Political Disintegration,» (Working Paper 6163 (Cambridge, Mass.: National Bureau of Economic Research, September 1997)، و (سوف يطبع American Economic Review).

اليسينا وسبولاور ويزيارغ يناقشون في أن الترابط بين التكامل التجاري (كما يظهر من تناسب التجارة إلى مجمل الناتج المحلي) والانفصال السياسي (كما يظهر من عدد الدّول في العالم) شكل نظامي على مدى التاريخ، ويعزى ذلك إلى الحاجة إلى اقتصاد النطاق. إذا استطاعت الدّول الحصول على اقتصاد النطاق هذا من خلال تجارة عالميَّة في نظام عالمي مفتوح، فإنَّها لا تحتاج لأن تحتفظ بها من خلال اتحاد اقتصادي مع دول أُخرى.

(3) لكن ليست الحالة دائماً هي أن «لا شيء جديداً تحت الشمس». فقد كانت العولمة الاقتصاديَّة في القرن التاسع عشر مختلفة نوعياً عما جاء في القرون السابقة، مثلاً، عصر الاكتشافات.

كيفن أورورك، وجيفري وليامسن، «The Heckscher - Ohlin Model between 1400 and 2000: Why It Explained Factor Price Convergence, When It Did Not, and Why», (Working Paper 7411 (Cambridge, Mass: National Bureau of Cambridge University Pres Research, Nov. 1994».

تظهر هذه الورقة المعايير الاقتصاديَّة ذات العلاقة «الخبطة الكبيرة» للعولمة تؤرخ بشكل صحيح في القرن التاسع عشر.

(4) جون مينارد كينيس، «The Economic Consequence of the Peace,» (Harcourt, Brace and Howe, 1920).

(5) إن المؤتمر المنعقد في بريتون وودز، نيوهامبشاير في سنة 1944 اقترح تأسيس منظَّمة التجارة الدّولية، كمؤسَّسة ثالثة من المؤسَّسات، وهي التي تنشط التجارة الحرة. لكن في

هذه الناحية، اختار الكونغرس في الولايات المتحدة تكرار رفضه قبل 25 سنة، رفض عصبة الأمم من قبل الرئيس، وبذلك لاقت ITO مصيرها عند حملها. لم يكن ذلك ممكناً حتى 1955 حيث أغلقت الغات في جنيف الفجوة وأصبحت وكالة عالميَّة متعددة الأطراف، منظمة التجارة العالميَّة.

(6) ريتشارد بولدوين (Richard Baldwin) وفيليب مارتن (Philippe Martin)، «Two Waves of Globalization: Superficial Similarities, Fundamental Differecnes», NBER Working Paper 6904 (كانون ثاني 1999).
تقدم وفرة من المعطيات تقارن عولمة ما بعد الحرب مع الموجه الأسبق من 1820 إلىٰ 1914.

(7) تؤلف الدّولة المتوسطة نحو 0,5 من ناتج العالم. (يوجد نحو 180 عضواً في صندوق النقد الدولي). وهكذا في عالم تحول إلىٰ العولمة بشكل كامل، فإن الدّولة المتوسطة تشتري أو تبيع 99,5٪ من ناتجها إلىٰ العالم الخارجي. ومرَّة أُخرىٰ، تقع معظم اقتصاديات الدّول بعيدة عن هذه الدرجة من التكامل العالمي. وسنغافورة وهونغ كونغ هما استثناءان فقط. تبلغ صادراتهما ومستورداتهما (لكل منهما) أكثر من 100٪ من مجمل الناتج المحلي، وهذا يشير إلىٰ أن مستوىٰ التناسب يجب أن يكون قياس مجموع المبيعات، وليس القياس مضافاً إليه الزيادة كمجمل الناتج المحلي. بعبارة أُخرىٰ، إن الإحصاء، بأن العولمة يجب أن تزيد ست مرات قبل أن تكتمل، هو إحصاء يقلِّل من التقدير.

(8) لانت بريتشيمت (Lant Pritchett) وجريتا سيثي (Greta Sethi)، «Tariff Rates, Tariff Revenue, and Tariff Reform: Some New Facts»، (ص 1 ـ 16 (كانون ثاني 1994) World Bank Economic Review, vol. 8).

(9) بين السلع، إن الهامش للسيف (CIF) في تجارة الولايات المتحدة يتراوح من المنخفض 0,7٪ للؤلؤ و0,8٪ للطائرات، إلىٰ المرتفع 25,1٪ للملح والكبريت والتربة والحجارة والمواد اللاصقة. وبين شركاء الولايات المتحدة التجاريين يتراوح هامش CIF من 1,7٪ بالنسبة للمكسيك إلىٰ 25,8٪ بالنسبة لغينيا. ولدراسة وتطوير هذه الإحصاءات، انظر فرانكل (Frankel) الصفحة 40 ـ 45، «Regional Trading Blocs».

(10) أجرىٰ مسح ما كتب هنا كينيث راغوف (Kenneth Rogoff)، «The Purchasing Power Parity Puzzle,» (Journal of Economic Literature, vol. 34) (ص 647 ـ 668 (حزيران 1996)).

(11) تشارلز آنجل (Charles Engel)، «Real Exchange Rates and Relative Prices: An Emperical Investigation,» (Journal of Monetary Economics, vol. 32)، صفحة 35 ـ 50 (آب 1993).

(12) كينيث فروت (Kenneth Froot)، مايكل كيم (Michael Kim) وكينيث راغوف (Kenneth Rogof)، «The Law of One Price over 700 Years,» (Working Paper 5132) (Cambridge, Mass. National Bureau of Economic Research, May 1995).

(13) من 1870 إلىٰ 1913، لكن يجد أورورك ووليامسون، «The Heckscher-Ohlin Model,» اتجاه هبوط في تفاضل أسعار القمح بين أوروبا والولايات المتحدة نتيجة للتجارة.

(14) هانز ليـنيـمـان، «An Econometric Study of International Trade Flows,» (Amsterdam: North-Holland, 1960);
وبيتر درايسديل وروس غارنوت (Peter Drysdale and Ross Garnaut)، «Trade Intensities and the Analysis of Bilateral Trade Flows in Many-Country World», (Hitotsubashi Journal of Economics, vol. 22 (1982) (صفحة 62 ـ 84).

(15) تشارلز انجلز وجون روجرز، «How Wide Is the Border?» (صفحة 1112 ـ 1125 (كانون أول 1996) American Economic Review, vol. 86).

(16) إن المصادر لتقديرات الجاذبية الموضوعة هنا، ما لم يكن عكس ذلك محدداً، هي من فرانكل وكذلك من أندرو روز في مقالته «Regional Trading Blocs,» «One Money, One Market, Estimating the Effect of Common Currencies on Trade,» (Economic Policy, vol. 30) (ص 7 ـ 46 (نيسان 2000)).
وجفري فرانكل وأندرو روز، «An Estimate of the Effect of Currency Unions on Trade and Growth,» conference on Curency Unions, organized by Alberto Alesina and Rebert Barro, Hoover Institution, Stanford University, May 2000; and an early reference on the gravity model is Linneman, «An Econometric Study».

(17) إيفـرايـم كـلانـيـمـان (Ephraim Kleiman)، «Trade and Decline of Colonialism,» (Economic Jornal vol. 86) (صفحة 459 ـ 480 (أيلول 1976)).

(18) تعرف العلاقة الاستعمارية كما في 1945. (قبل أخذ الأس، التقدير هو 1,75 في 1990 أو 2,2 للسنوات 1970 ـ 1990 مجتمعة).

(19) إدوار مانسفيلد (Edward Mansfield)، «Effects of International Politics on Regionalism in International Trade», في كتاب من إعداد: كيم أندرسون، وريتشارد بلاكهرست: «Regional Integration and the Global Trading System,» (Harvester Whealsheaf, 1993);
وإدوارد مانسفيلد وراشيل برونسون في كتاب من إعداد إدوارد مانسفيلد وهيلين ملنر: «The Political Economy of Major Power Trade Flows,» «The Political Economy of Regionalism,» (Columbia University Press 1997);
وجوناغوا وإدوار مانسفيلد، «Power Politics and International Trade,» (American Political science Review, vol. 87) (ص 408 ـ 45 (حزيران 1993)).

(20) فرانكل، «Regional Trading Blocs» وروز: «One Money».

(21) شانغ ـ جين وي: «How stubborn Are Nation States in Globalization?» (نيسان 1996)، (Cambridge, Mass. National Bureau of Economic Research).

(22) جـون مـاكـولـم، «National Borders Matter: Canada-U.S. Regional Trade Pattern,» (American Economic Review, vol. 85) (ص 615 ـ 623 (حزيران 1995)).

(23) جون هيلي ويل، «How Much Do National Borders Matter?» (Brookings, 1998).

(24) إنجل وروجرز، «How Wide Is Border?».

(25) جون هيلي ويل وجون ماكولم، «National Borders Still Matter for Trade,» (Policy Options/ Options Politique, vol. 16) ص 44 ـ 48 (تموز ـ آب 1995).

(26) فرانكل، ««Regional Trading Blocs,» pp. 135-139.
وجيفري فرانكل وشانغ ـ جين وي، في كتاب من إعداد فرانكل: «Regionalization of World Trade and Currencies: Economics and Politics,», «The Regionalization of the Word Ecnonmy» (University of Chicago Press, 1997), وروز، «One Money».

(27) روز، «One Money».

(28) آلن تايلر، «International Capital Mobility in History: The Saving-Investment Relationship», (Working Paper 5743), (Cambridge, Mass.: National Bureau of Economic Research, 1996).

(29) مارتن فيلد ستاين (Martin Feld Stein)، وتشارلز هوريوكا (Charles Horioka)، «Domestic Saving and International Capital Flow,» (Economic Journal, vol. 90 (1980): 314-329;
وجيفري فرانكل، «Measuring International Capital Mobility: A Review,» American Economic, vol. 82 (صفحة 197 ـ 202 (أيار 1992)).
يعرض مسحاً موجزاً لاختبارات مساواة الوفر ـ الاستثمار والفائدة للتكامل (الاندماج) المالي.

(30) كارن لويس، «Puzzles in International Financial Markets,» في كتاب من إعداد جين غروسمان وكينيث راغوف: Handbook of International Economics, vol. 3 (North Holland, 1995).

(31) يبدو أن المشاعر الخاصة بالدّولة تفرق بين المستثمرين الذين يقيمون في دول مختلفة. يختلف سعر أموال الدّولة ذات الطرف الواحد في مدينة نيويورك اختلافاً كبيراً من «القيمة الصافية للأصول»، سعر سلة الأسهم التي يتاجر بها في الدّولة، الذي يجب أن يكون مماثلاً بالسعر.
كينيث فروت وإيميل دابورا، «How Are Stock Prices Affected by the Location of Trade,» (Journal of Financial Economics, vol. 53) (صفحة 182 ـ 216) (آب 1999).
حتى في حالة الشركات المتماثلة عملياً، يبيّن فروت ودابورا أن أمثال القوائم السيامية (روبال دتش/ شل يبين اندماجاً (تكاملاً) ناقصاً، فرويال دتش تتصرف بالسعر كأنّها جزء من سوق الأسهم في نيويورك، بينما تعتبر شل كأنّها جزء من سوق لندن.

(32) جين غروسمان والهنان هيلبمان (Gene Grossman and Elhanan Helpman)، «Innovation and Grwoth in the Global Economy,» (MIT Press, 1991) وإلهنان هيلبمان وبول كروغمان، «Market Structure and Foreign Trade.» (MIT Press, 1985).

(33) جيفري فرانكل، وداڤيد رومر، «Does Trade Cause Growth?» (American Economic Reveiw vol. 89) (ص 379 ـ 399 (حزيران 1999)).

(34) التقدير الأصغر أكثر علاقة إذا رغب المرء بتثبيت عوامل دخل حاسمة كالاستثمار ورأس المال البشري والدخل الابتدائي (1990) لكي تعزل الأثر المباشر للتجارة في الدخل. لكنها تترك مثلاً أي أثر للانفتاح الذي يأتي بطريق الاستثمار المشمول ضمن أعداد أكبر.
التقدير الأصغر أكثر علاقة إذا رغب المرء بتثبيت هذه العوامل الحاسمة للدخل

كالاستثمار ورأس المال البشري والدخل الابتدائي (1960) لكي تعزل الأثر المتوسط المدىٰ المباشر في الدخل. ولكن بغرض السرعة المقدرة للالتقاء، فإن أثراً يبلغ 0,3 خلال فترة 25 سنة ينتقل إلىٰ أثر 1,2 علىٰ المدىٰ الطويل لدولة ثابتة. دوغلاس ايرون وماركو تيرڤيو، «Does Trade Raise Income? Evidence from the Twentieth Century». المسودة الأولية (آذار 2000) تعود إلىٰ 1913، وتجد آثاراً كبيرة أيضاً.

(35) داني رودريك وفرانسيسكو رودريغويز، «Trade Policy and Economic Growth: A Skeptic's Guide to the Cross-National Evidence.» (Harvard University, Kennedy School of Government, 2000); and National Bureau of Economic Research, «Macroeconomics Annual 2000 (Cambridge, Mass.) سيصدر.

لقد انتقدوا الأدبيات التجريبية التي تجد ارتباطاً ما بين التجارة والنمو.

(36) توجد مراجع كثيرة ممكنة. موريس أوبستفيلد، «The Global Capital Market: Benefactor or Menace?, Working Paper 6559 (Cambridge, Mass.: National Bureau of Economic Research, وستصدر أيضاً (أيار 1998)، في (Journal of Economic Perspectives,)، وجيفري فرانكل، «Proposals Regarding Restrictions on Capital Flows,» (African Finance Journal vol. (1999) ص 92 ـ 104.

يذكر كل منهم حجته بإيجاز إلىٰ جانب أو ضد انتقال رأس المال العالمي.

(37) واحدة من أهم المقولات لصالح التجارة هي غير اقتصاديَّة، وهي التي تشجع السلام والتفاهم، وتساعد في انتشار القِيَم كالديمقراطية والأسواق الحرَّة التي يعطيها الأمريكيون أهمية كبيرة. لا يوجد مجال كاف لبحث هذه المقولة هنا. هذه هي من المحتمل أن تكون جيدة بقدر الخصوم الذين هم تحت تأثير وهم بأن التجارة الحرة هي معروف يؤديه الأمريكيون ليفيدوا دولاً أخرىٰ، معروف، مثلاً، كان ضرورة جيوسياسيَّة خلال الحرب الباردة لكن الولايات المتحدة لم تعد تستطيع تقديمه.

(38) أورورك، ويليامسن (O'Rourke-Williamson)، «The Heckscher-Olin Model,» يجدان أن للتجارة أثراً كبيراً مفترضاً في العوائد من العمل، الأرض ورأس المال في القرن التاسع عشر، الفترة التي صممت نظرية هيكشير ـ أوهلن للتفسير.

(39) مثلاً، انظر كروغمان وروبيرت لورانس، «Trade, Jobs and Wages,» (Scientific American), (نيسان 1994).

(40) علىٰ الرغم من أن هذه فقط 6٪ من مجمل القوىٰ غير المتساوية. التعقيد هو أن زيادة كبيرة حدثت في عرض العمال المهرة، وهذا العمل يجعل الأجور النسبية تهبط، وهكذا فإن مجمل القوىٰ غير المتساوية التي يجب تفسيرها هي أكثر 100٪ من الزيادة في الفجوة بين أجور المهرة وغير المهرة. وليام كلاين،
«Trade, Jobs and Income Distribution,», (Washington: Institute for International Economics, 1997).

(41) آڤيك تشاكرا بارتي، «Do Nations That Trade Have a More Unequal Distribution of Income?» (University of Wisconsin, 2000).

(42) روبرت بارو، «Inequality, Growth, and Investment,» Working Paper 7038 (Cambridge, Mass.) (آذار، 1999)، وتشمل مراجع وإحصائيات حديثة تدعم العلاقة لكثير من الدّول.

(43) جين غروسمان وآلن كروغر، «Economic Growth and the Environment,» (Quarterly Journal of Economics, vol. 110 (1995) (ص 353 ـ 377).

(44) بعض المعطيات التي روجعت ليس داعمة لعلاقة U المقلوبة بين الدخل والتلوث. وليام هاربو، آرك ليفنشون وداڤيد ويلسون، «Reexamining the Empirical Evidence for an Environment al Kuznerts Curve,», NBER Working Paper 7711 (Cambridge, Mass. NBEr,) (أيار 2000).

لكن المؤلفين يجدون أيضاً أن التجارة بوضعها الراهن ذات تأثير مفيد، يبقى ثابتاً من أجل الدخل.

(45) بعد القرار حول مكان وضع الشركات، فإن الشركات المتعددة الجنسيات تعطي اهتماماً أكبر كثيراً لمواضيع مثل كلفة العمالة والوصول إلى السُوق من التعليمات البيئية المحلية.

ج. آ، توبي، «The Effects of Domestic Environmental Policies on Patterns of World Trade: An Empirical Test,» (Kyklos, vol. 43 (1990) p.p. 191 - 209).

وآدام جاف (Adam Jaffe) وآخرون، «Environmental Regulation and the Competitiveness of U.S. Manufacturing: What Does the Evidence Tell US?» (Journal of Economic Literature, vol. 33 (1995) p. p. 132-162.

(46) وارنر أنتويلر، برايان كوبلاند، وم. سكوت تايلر: «Is Free Trade Good for the Environment?» (Working Paper 6707 (Cambridge, Mass: NBER,) (آب 1988).

obeikandl.com

3

غراهـام آليسـون
Graham Allison

أثـر العولمة في الأمن القومي والعالمي

واضح أن العولمة كلمة طنّانة، وربما كانت الكلمة الطنّانة الأهمّ في هذا العصر. مفيدٌ في البداية، أن نذكّر أنفسنا بأن العولمة بالأساس تركيب فكري وليست حقيقة بسيطة. وكما تستعمل في الوقت الحاضر، غالباً ما تُعرّف تعريفاً سيّئاً بأنّها مؤشّر إلىٰ عدد متباين من الظواهر، غالباً ما يصاحبها ضيق تنفّس يتضمن أن وراء هذه الظواهر، أو في جذورها، توجد مادة لتكتشف بعد. (تذكر تعريف لوك Locke للمادة: «شيء لا أعرف ما هو»). وكما يستعملها المروّجون اليوم، يذكرني ذلك ببرنامج إذاعي يدعىٰ «الظل»، الذي يعلن في بدايته «الظل له القوة لجعل عقول الناس غائمة». إن التمييز بين العولمة Globalization من جهة، و«العولمة الكاذبة» Globaloney من جهة أُخرىٰ، هو تحد كبير.

للمساعدة في تلك المهمة، اسمحوا لي أن أقترح تعريفاً يقوم علىٰ أساس ما يسميه أحد زملائي «مجاز الشبكة». وبموجب هذا المجاز، يجب أن نفكّر

(*) يرغب المؤلف في أن يشكر بن دنلاب Ben Dunlap علىٰ مساعدته في إعداد هذا الفصل.

في العولمة بأنَّها عبارة عن شبكات قابلة للتعريف. من ناحية الاشتقاق اللغوي، فالشبكات عبارة عن توسيع فكري لموضوع بسيط يدعىٰ الشبكة، مثلاً شبكة صيد السمك فيها خيوط متصلة تتقاطع بأبعاد منتظمة. الروابط بين عقد في أنظمة بث الراديو أَو التلفزيون، أَو المكونات الإلكترونية المتصلة، تصبح شبكة. فباستخدام هذا المجاز تكون العولمة قد عُرِّفت كإبداع أَو توسيع شبكة قابلة للتعريف حول الكرة الأرضية. الشبكة العالميَّة تصل النقاط والناس حول العالم علىٰ بعد محدد أَو في وسط معين.

تصبح أهمية هذا التعريف أكثر وضوحاً عند مقارنة العولمة مع الإقليميَّة أَو القوميَّة أَو المجموعة الشمسيَّة أَو الكونيَّة. فالقوميَّة تفهم بأنَّها مؤسّسة من الشبكات بين النقاط والناس علىٰ أبعاد محددة عبر الأمَّة. والمجموعة الشمسيَّة كإبداع شبكات علىٰ أبعاد محدّدة بين نقاط عبر المجموعة الشمسيَّة.

وفي موضوع الشبكات، فكر بشبكة الهاتف أَو بشبكة الكهرباء أَو حتى شبكة الإنترنت. فتعرّف الشبكة بأنَّها صلات معينة بين نقاط أَو أناس هم أجزاء الشبكة، وللشبكة «هندسة معمارية» تعرّف الطبيعة المحددة للعلاقة بين وحدات في النِّظام. هناك ثلاثة أنواع من هندسة الشبكات النموذجيَّة هي: «المركز والأشعة» أَو «النجم»، والشبك ويتألف من أشعة متصلة، وشبكة «سيارة الباص» وتتألَّف من رابطة بث مفردة تتّصل بها كافة العقد. (الأشكال 3 ـ 1، و3 ـ 2، و3 ـ 3). تمثِّل شبكةَ «المركز والأشعة» حركةُ طيران تبدأ من مطار واحد؛ وشبكة الكهرباء مثال علىٰ هندسة الشبك؛ وشبكة «سيارة الباص» هي «شبكة» الإنترنت المستعمَلة عموماً. وأمثلة أُخرىٰ من شبكة الإنترنت تشمل «الحلقة» و«حلقة النجم السلكي»، وهي جمع شكل النجم مع شكل الحلقة (الأشكال 3 ـ 4 و3 ـ 5).

إن المناقشات السابقة حول نمو الاتصالات العالميَّة نتج عنها مفهوم «الاعتماد المتبادل» وهو يعني بصورة أساسيَّة أن آثاراً تبادلية تنتج من الروابط

بين الدّول المختلفة. ومع مرور الوقت اتضح أن الاعتماد المتبادل أمسك بجزء من القصة فقط. فالدّول والعاملون في دول مختلفة يتَّصلون بأبعاد معينة، وبسبب هذه الاتصالات يكون لهم آثار تبادليَّة في بعضهم بعضاً. ولكن نادراً ما تكون آثار هذه التفاعلات متساوية. فالقوة النسبية والشدة أَو التأثير، كلّها عوامل تحديد في العلاقات بين الدّول أَو العاملين في دول مختلفة.

إذا استخدمنا مفهوم الشبكة العالميَّة، فإنَّنا نستطيع تحديد سؤالين رئيسيين حول العولمة. الأول، ما هي الصِّلة المحددة الموجودة بين أية نقاط محددة في النِّظام؟ لا توجد عولمة إذا لم توجد صِلات محددة بين نقاط محددة حول العالم وبأبعاد محددة. نقاط في العالم فقط متصلة بالنِّظام العالمي، مثلاً الإنترنت، هي التي تشترك في هذا النِّظام العالمي المحدد. السؤال الثاني، نستطيع أن نسأل عن أثر أية نقطة من النِّظام في الوحدات الأُخرىٰ. ففي شبكة المصدر والأشعة، إن المصدر المركزي للطاقة، كمحطة الطاقة المركزية، توزع الكهرباء من خلال عقد إقليميَّة إلىٰ المستهلكين المحليين، والأثر هنا يتدفق باتجاه واحد فقط. والبديل في شبكة الطاقة الكهربائية توزع عدة مولدات الطاقة بين عقد في الشبكة. والشخصية الديمقراطية الرائعة لشبكة الإنترنت، غالباً ما تلاحظ لأسباب تشريعيَّة كثيرة. فعلىٰ سبيل المثال، يستطيع كل مشترك في النِّظام توليد رسائل للآخرين، ويستطيع كل شخص «يعرف كيف» أن يوجد موقعاً في الشبكة. إن الشبكة العالميَّة ككل غير منظمة نسبياً. وتظهر محركات البحث النتائج بطريقة ديمقراطية. ومع ذلك، إن الفروق في التأثير النسبي بين المستعملين ومقدمي الخدمة، أَو المستعملين ومقدمي المحتوىٰ، أَو محرِّكي البحث، هذه الفروق كبيرة جداً بقدر الفروق بالطاقة الملاحظة بين معظم الأنظمة القوميَّة.

الشكل 3 ـ 1

النجم

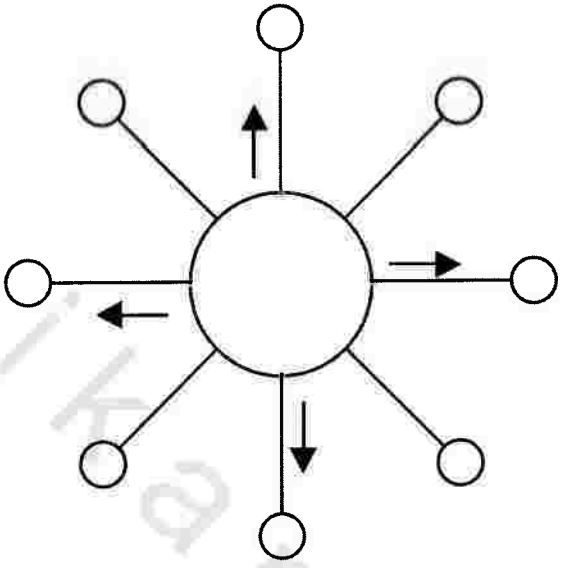

الشكل 3 ـ 2

الشبك

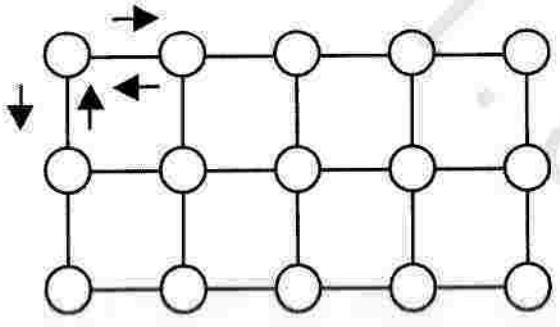

obeikandl.com

الشكل 3 ـ 3

الباص

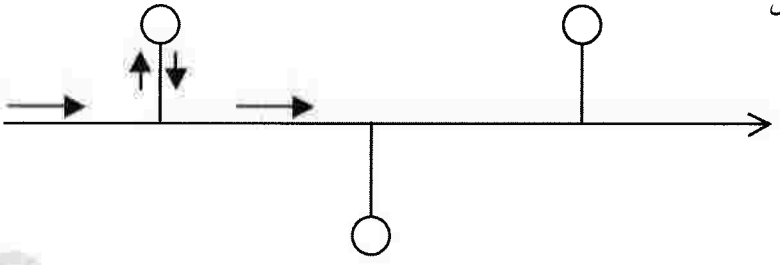

الشكل 3 ـ 4

الحلقة

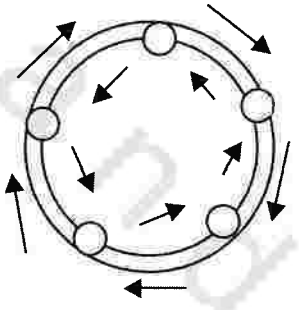

الشكل 3 ـ 5

النجم والحلقة

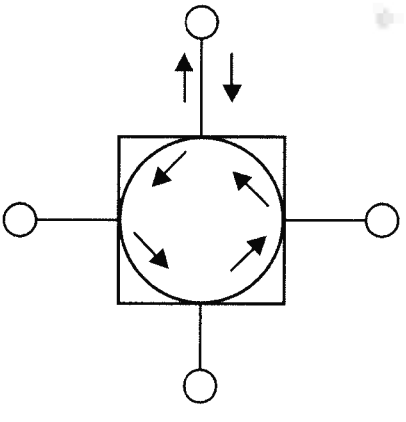

obeikandl.com

إن تعريف العولمة بأنَّها شبكات عالميَّة معينة يمكن أن يسمح لنا بتجنّب الكثير مما يبدو «عولمة كاذبة» حول عامل المساواة العظيم. فالنقاط حول العالم التي تصبح متصلة بشبكة عالميَّة على أبعاد ما يمكن أن تستفيد كما يستفيد المزارع الريفي عندما تصل الكهرباء إلى مزرعته. ولكن لا يتصور أحد أن تأثير المزارع في مولد الكهرباء مساوٍ لتأثير المولد فيه. فكِّر، بطريقة مماثلة، بصاحب معمل الأدوية في السودان الذي أَصبح متصلاً بنظام توضع عالمي إضافة إلى نظام تسليم طويل المدى لذخائر توجه بدقَّة. هذه الرابطة جعلت من الممكن لرئيس الولايات المتحدة وبقرار وحيد الجانب أن يدمِّر ذلك المصنع ببضع ساعات، مبيناً لصاحب المعمل عدم المساواة في صلة غير مرغوب فيها.

ما هو المقصود بقضايا الأمن التقليديَّة والقوميَّة والعالميَّة؟

في كتب العلاقات الدّولية النموذجية، الدّول هم اللاعبون الرئيسيُّون في العلاقات الدّولية، والقضايا المركزية للدول هي البقاء، ووحدة الأراضي القوميَّة ومؤسّساتها، وحرية العمل للحفاظ على هذه المصالح الجوهرية وازدهار الدّولة ومواطنيها. وهكذا، على سبيل المثال بدأت هيئة المصالح القوميَّة الأمريكية التي خدمت بها، بدأت بعبارة الأمن القومي التقليدي من استراتيجية الولايات المتحدة بعد الحرب العالميَّة الثانية وهي: «لنحافظ على الولايات المتحدة كأمَّة حرَّة بمؤسساتنا وقِيَمنا الأساسيَّة سليمة»[1]. والنص الحديث يقول «لنحمي ونطوِّر رفاه الأمريكيين في أمَّة حرَّة آمنة»، وبهذا يعترف بالرخاء إضافة إلى البقاء والأمن كأهداف جوهرية.

مرة ثانية، لاحظ الفروق الكبيرة بين القوى العظمى والصغرى، وكذلك بين الاستراتيجيَّات المتوافرة للتعامل مع التحديات لهذه الأهداف الجوهرية. ولاحظ أيضاً أنَّه يمكن أن يوجد صراع بين هذه الأهداف، فمثلاً، كما هو ظاهر في العمل الأوروبي الراهن في حجب التحكم المسيطر على العملات لصالح البنك المركزي الأوروبي بأمل تشجيع الرخاء. وبطريقة مماثلة، يلجأ الضعفاء

إلىٰ التضحية باستقلالهم في العمل بالتحالف مع القوىٰ الأعظم حفاظاً علىٰ بقائهم وسيادة أراضيهم.

وهكذا تشتمل قضايا الأَمن التقليديَّة علىٰ الحرب والسلام، سيما في ما بين القوىٰ العظمىٰ؛ وتوازن القوىٰ والأحلاف؛ والإمبرياليَّة؛ والعلاقات الاقتصاديَّة الدّولية بما فيها الوصول إلىٰ المواد الخطرة، والتجارة، والاستثمار، والعملات؛ والقانون الدّولي؛ والمؤسَّسات العالميَّة. وما يسمى بالأجندة الجديدة التي تشتمل علىٰ بعض القضايا التي برزت مع التطور التقني (مثلاً، النتائج البيئيَّة لطرق الإنتاج أَو إسهامات تكنولوجية حيوية لتقديم أسلحة الدمار الشامل) وبعض الأمور التي كان اهتمام الدّول بها أقل في السابق، خاصة الأحداث داخل الدّول الأُخرىٰ كالحروب الأهلية وحقوق الإنسان.

قدمت الصحيفة الرائدة في هذا المجال، الأَمن العالمي International Security، في عددها الأول الصادر سنة 1976، تعريفاً للأَمن العالمي والذي أثبت أنَّه دليل دائم:

> «يتزايد تعريف الأمم لأمنها ليس بالأشكال التقليديَّة لقوَّاتها العسكريَّة، واقتصادها النشيط، واستقرار الحكم فيها فقط، بل بشروط أُخرىٰ كقدراتها التي كانت في الماضي أقل مركزية: كموارد الطاقة، والعلم والتكنولوجيا، والغذاء، والمصادر الطبيعيَّة. . . . اليوم لقد فرض الاعتماد المتبادل اهتمامات عبر الأمم ـ كالتجارة والإرهاب والتوريدات العسكريَّة والبيئة ـ لتكون عناصر رئيسيَّة في الاعتبارات الأمنية في أي مجتمع رفاه ورخاء. . . يشتمل الأَمن العالمي علىٰ جميع تلك العوامل ذات التأثير المباشر في بنية نظام دولة الأمَّة وسيادة أعضائها. مع تأكيد خاص علىٰ استخدام القوة والتهديد بها وضبطها[2]؟»

بالاختصار، يشتمل التغير المشروط في سؤال هذه المقالة علىٰ بقاء

الدّول وسيادتها وقوتها ورخائها، وعلىٰ الأدوات الرئيسيَّة التي تحمي بها هذه المصالح وتطورها.

ما هي الفرضيات الرئيسيَّة حول تأثير العولمة في قضايا الأَمن التقليديَّة والقوميَّة والعالميَّة؟

لنبدأ بدراسة الفرضيَّات الرئيسيَّة التي قدَّمتها أوسع المراجعات حول هذا الموضوع في كتاب لديفيد هيلد وآخرون David Held[3]. فهم يعرضون ست فرضيَّات رئيسيَّة حول العولمة وقضايا الأَمن.

- «إن انتشار التقنيات العسكريَّة في جميع أنحاء العالم تعني أنَّه بينما يطوِّر المجددون ويستخدمون حدوداً فاصلة في الأسلحة المتطورة، فإن دولاً أُخرىٰ تضطر للحصول علىٰ أحدث المعلومات والأنظمة أَو أن تدفع ثمن تخلفها في قوتها العسكريَّة وفي أَمنها»[4].

بينما هذه الحقيقة المؤكّدة صحيحة فإنَّها ليست جديدة ولا عالميَّة.

- «لم يعد يحتاج خوض حرب في عصر المعلومات إلىٰ تحريك المجتمع فيزيائياً، بل يحتاج إلىٰ سياسة علاقات عامَّة فعَّالة تستخدم فيها وسائل الإعلام بمهارة لإعلام الرأي العام. تحتاج معظم الحروب الآن إلىٰ الهدوء السياسي لأَنَّها الآن رأسمال شديد وإمكانات محددة أكثر»[5].

مرة أُخرىٰ، التأكيد صحيح، لكنه يصف تطوراً ضمن بعض الدّول، ليس حقيقة عالميَّة. وفضلاً عن ذلك، إن التطور المذكور ليس نتيجة للعولمة.

- «العالم يمارس ثورة جديدة في التكنولوجيا العسكريَّة MTR، فتقنيات المعلومات تحول القدرات العسكريَّة الموجودة، وإدارة الحروب، والقدرة علىٰ إظهار القوة العسكريَّة من مسافات بعيدة بدقَّة عظيمة»[6].

إن ثورة التكنولوجيا العسكريَّة تطور مهم في القدرات العسكريَّة التي نُوقشت كثيراً، والَّتي وسَّعت من وصول وتمييز القوات العسكريَّة لدىٰ

بعض الدّول. تستطيع الدّول بواسطة الصواريخ البالستية عابرة القارات ICBM والأسلحة النووية مهاجمة كل النقاط الأُخرىٰ حول الكرة الأرضية. دولة واحدة، هي الولايات المتحدة، تستطيع استخدام القوة المميزة عالمياً.

- «تجعل أنظمة الاتصالات الآنية إدارة الحروب أسهل، لأن القادة يستطيعون الإشراف والتدخّل بالعمليات العسكريَّة الميدانيَّة إلىٰ درجة لم تكن ممكنة من قبل»[7].

هذا صحيح بالنسبة للدولة التي فيها الأمر والتحكم والاتصالات، وليس هناك سوىٰ دولة واحدة.

- «العولمة المتزايدة في قطاعات الصناعات المدنية التي تعمل في الإنتاج الدفاعي كالإلكترونيات أَو البصريات، تتساهل في السيادة التقليديَّة للقدرات الدفاعية القوميَّة، لأنَّها تجعل الحصول علىٰ الأسلحة واستخدامها خاضعاً لقرارات وأعمال سلطات أُخرىٰ أَو شركات وراء مجال التشريع القومي»[8].

إن الظاهرة التي تشير إليها هذه الفرضيَّة تحدث ويمكن أن يكون لها آثار كبيرة لدول هي بالأساس مستهلكة لمنتجات أَو مكونات من ثورة المعلومات والجينات. ولكن بالنسبة للولايات المتحدة إن التطور الأهم هو اتساع الفجوة بين التطور المدني لرقائق التنمية التكنولوجية التي يتطلبها السوق والكومبيوتر والجينزات إلخ. من جهة، وتطوير واستعمال هذه التقنيات التي تملكها الدّولة أَو تسيطر عليها، من جهة أُخرىٰ.

- «تصبح تهديدات أَمن الدّول، أكثر انتشاراً ولم تعد عسكريَّة بشخصيتها. فهكذا يوجد تكاثر أسلحة الدمار الشامل تهديداً قوياً لكل الدّول»[9].

مرة ثانية تعرض هذه الحالة حقيقة هامَّة عن أسلحة الدمار الشامل لكن علاقتها بالعولمة غير واضحة.

ثانياً، انظر الفرضيات الكبيرة التي عرضها توماس فريدمان Thomas Friedman في كتابه الأكثر مبيعاً The Lexus and the Olive Tree، في فصله حول الأَمن والجيوبولتيكا «السياسة الجغرافية»[10]. يقدِّم فريدمان أربعة اقتراحات حول تأثير العولمة في الأَمن.

- يؤدي التطور الاقتصادي والرخاء إلىٰ السلام بين الأمم. «عندما تصل دولة ما إلىٰ مستوىٰ من التطور الاقتصادي حيث تصبح الطبقة الوسطى كبيرة لدرجة تكفي لدعم سلسلة محال ماكدونالدز McDonald's تصبح دولةَ ماكدونالدز. ولم يعد الناس في دول ماكدونالدز يحبون خوض الحروب؛ إنَّهم يفضِّلون الاصطفاف والانتظار للحصول علىٰ البرغر[11].

إن هذا المتغير المثير من نظرية السلام الديمقراطي، وبموجب هذه المقولة فإن الديمقراطيات لا تحارب ديمقراطيات أُخرىٰ، وقد وُضع تحت الاختبار في غارات حلف شمال الأطلسي NATO علىٰ صربيا في سنة 1999. فأقواس ماكدونالدز لم تنقذ وسط مدينة بلغراد. تساعد العولمة الاقتصاديَّة علىٰ انتشار الرخاء الاقتصادي والتغير التكنولوجي، لكن تأثير هذا التطوير أقل وضوحاً. ويعترف فريدمان بهذا في كتابه في ما بعد، وهو يلاحظ أنَّه بينما تزيد «العولمة من تكاليف خوض الحرب لأسباب تتعلَّق بالشرف أَو الخوف أَو المصلحة، فإنَّها لا تلغي ولا تستطيع أن تلغي أيَّاً من هذه الغرائز»[12].

- يقدِّم المستثمرون العالميون الخاصون، وليس الحكومات، أهم المصادر المالية اليوم يدفعهم هدف الربح وليس الأفكار: إن الشركات الإلكترونية العملاقة لا تكتب شيكات بيضاء لتكسب حب وولاء دولة ما؛ إنهم يكتبون الشيكات لتحقيق الأرباح. والمجمعات الاستهلاكية (السوبر ماركت) والشركات الإلكترونية لا تهتم حقاً بلون بلدك الخارجي أبداً. فكل ما يهمها هو كيف تترابط بلدك من الداخل، وما هو مستوىٰ الأنظمة والبرمجيات التي تستطيع تشغيلها، وإن كانت حكومتك تستطيع حماية

الملكية الخاصة. لذلك، لن تمول تلك المجموعات حرباً إقليمية لدولة ما قط ولن تعيد بناء القوات المسلَّحة لدولة ما بعد حربها مجاناً ـ كما تفعل القوىٰ العظمى لتكسب الولاء فقط ـ بل إن هذه المجموعات سوف تعاقب بالفعل الدّولة لخوضها حرباً مع جيرانها، وذلك بسحب مصدر النمو الهام والوحيد في العالم اليوم، رأس المال»[13].

يشير فريدمان إلىٰ حقيقة هامَّة هنا. لقد تجاوزت شبكات التجارة العالميَّة سيادة الدّولة. فالمستثمرون العالميُّون الخاصُّون يبحثون عن قواعد للعبة يمكن التنبؤ بها ويمكن فرضها. ولأنَّها مصادر قوية ومستقلَّة للتأثير في الأمم وفي العلاقات بين الأمم، فإنَّها تساعد في صياغة الشروط التي بموجبها تشترك الدّول في شبكات عالميَّة معينة. لذلك فإن تأثير GAAP (ممارسات المحاسبة المقبولة عموماً، وليس مخازن بيع الملبوسات) في المشاركين الطموحين في الأَسواق العالميَّة تأثير مكشوف.

- بسبب عولمة شبكات الأَموال، فإن الدّول أكثر عرضة للتأثُّر بالأزمة الاقتصاديَّة المنتشرة من إقليم إلىٰ آخر. بينما تصبح الأزمات العسكريَّة الإقليمية محدودة، تصبح الأزمات الاقتصاديَّة الإقليمية عالميَّة، كالمكسيك في منتصف التسعينيَّات، وجنوب شرق آسيا في أواخر التسعينيَّات، وروسيا في نهاية التسعينيَّات. فنظرية الدومينو التي كانت تخص عالم السياسة، إنَّها اليوم تخص عالم المال»[14].

لقد كانت نظرية الدومينو دائماً مجازيَّة أكثر منها تحليليَّة. فهي علىٰ العموم تغطي طبقات غير مختلفة لاتصالات مباشرة وغير مباشرة، نفسية أَو تخيلية وتستطيع أن تكون محلية أَو إقليميَّة أَو حتى عالميَّة في بعض الأحيان. إن الأَسواق العالميَّة لرؤوس الأَموال متكاملة، لذلك فإن الأحداث في دولة ما يمكن أن تؤثِّر في دول أُخرىٰ تأثيراً مباشراً من خلال تحويلات مالية آنية وتأثيراً نفسياً. مثل هذه التأثيرات، التي تُثير انقطاعات كبيرة في اقتصاد

ما، يمكن أن تقلِّل من أهمية القدرات العسكريَّة أَو تفاقم الاتجاهات الانفصالية، أَو تخلق قابلية للتأثّر بالخصومات الخارجية. تتضح هذه النتائج وغيرها في الأزمة المالية الآسيوية في سنوات 1997 ـ 1998، والمثال هو أندونيسيا (التي فقدت تيمور الشرقية).

- الاتصالات العالميَّة تسبِّب نشوء تهديدات أمنية جديدة لكنَّها أقل تحديداً. «عليك أن تقلق بشأن التهديدات المقبلة من دول أمة انفصلتَ أنت عنها، العراق، إيران، كوريا الشمالية. أما الآن، فيجب عليك أن تقلق وبصورة متزايدة بشأن التهديدات المقبلة من أولئك الذين أنت متصل بهم، بما في ذلك الاتصال عبر الإنترنت، والأَسواق، ومن أولئك الأقوياء الذين يستطيعون المجيء إلىٰ باب دارك[15].

إن شبكات الاتصالات المعولمة والأَسواق المالية والنقل تزيد من ضعف الدّولة أمام التهديدات من فشل الأَنظمة ومن عوامل لا علاقة لها بالدّولة.

بعد التفكير بالأسئلة الموضوعة والحجج التي قدّمها فريدمان Friedman وهيلد Held وآخرون أعرض هنا للتفكير ثماني فرضيَّات حول آثار العولمة في المصالح الأَمنية التقليديَّة القوميَّة والعالميَّة.

- إن التطورات التكنولوجية المستخدمة في تحديد الأهداف (أنظمة التوضع العالمي) وتوجيه متفجرات إلىٰ أهداف (القذائف والقنابل الليزريَّة) وفعل ذلك خلال ساعات يسمح لبعض الدّول (خاصَّة الولايات المتحدة) لأن تصل إلىٰ أهداف وتدمرها عملياً في أي نقطة في العالم. لقد وجدت هذه الظاهرة منذ تطوير ICBMs (الصواريخ البالستية العابرة للقارات) مع الرؤوس النووية. وهذه قدرة طوَّرتها الولايات المتحدة وروسيا وبريطانيا وفرنسا والصين. تسمح التطورات الأخيرة للولايات المتحدة بتحقيق هذه النتيجة بمتفجرات تقليديَّة غير النووية بتوجيهها بدقة عالية بواسطة القنابل الذكية وصواريخ كروز. من بين النتائج: الدّول الأضعف عرضة

للتهديدات الشديدة واستخدام القوة من قِبل قوى بعيدة بطُرق لم تكن ممكنة في الماضي. وظهر ذلك جلياً في غارات حلف الناتو بقيادة الولايات المتحدة علىٰ صربيا في سنة 1999.

- إن التقدّم في تكنولوجيات أسلحة الدمار الشامل، وخاصة التقنية الحيوية، الذي يحسِّن القدرات التدميريَّة للعوامل الحيوية، بالإضافة إلىٰ زيادة الوصول إلىٰ الأَسلحة النووية والمواد النووية التي يمكن استعمالها في الأَسلحة من دول الاتحاد السوفياتي السابق، وشبكات النقل العالميَّة التي تجعل من الممكن للدول الحمراء أَو الإرهابيين عبر الأمم أن يسبِّبوا دماراً في دول قوية، لم يكن في الماضي من الممكن تخيلها.

من بين النتائج: إن يقم (أَو عندما يقوم) سلوبودان ميلوسيڤتش أَو أسامة بن لادن أَو أمثالهما بوضع أجهزة نووية أَو حيوية في مدن أمريكية، فهل ستقوم الولايات المتحدة بحملة قصف مماثلة؟ إن التسرب الممكن لتقنيات الأَسلحة النووية والحيوية والكيماوية مع انتقال الأفراد المتزايد، وكذلك الشحن يخلق نقاط ضعف جديدة حتى في الدّول القوية فتحرضها علىٰ اتخاذ إجراءات وقائية مكلفة ضد الإرهاب الجماعي علىٰ ترابها الخاص.

- إن تآكل سيادة الدّولة والحمايات التقليديَّة من «التدخل في الشؤون الداخلية» له أسباب متعددة لكنه يتجمع بالعولمة، سيما عولمة المعلومات حول الأحداث في دولة ما والتي تهم مواطنين من الدّول الأُخرىٰ. إن ظاهرة السي إن إن CNN تسمح للناس المتصلين بشبكة التلفزيون العالميَّة بأن يروا الحوادث التي تجري في أي مكان تقريباً في العالم، وبذلك يحكمون إن هددت مصالحهم أَو أصيبت مصالحهم بأذىٰ. (قد يسأل الأب بيركلي الحديث Bishop Berkley إن سقطت شجرة في غابة حيث لا توجد آلة تصوير لشبكة سي إن إن لتصورها، هل تصدر صوتاً؟) في محاولة لتبرير ما يعرف الآن بالتدخل الإنساني، يقدم القادة من أمثال بيل

كلنتون Bill Clinton وطوني بلير Tony Blair ادعاءات كونية وهم مهملون لقوانين الأُمم المتَّحدة التي تحتاج إلىٰ موافقة مجلس الأمن من أجل التدخل. أثارت القضية نقاشاً بين القادة المفكرين في الأُمم المتَّحدة من أمثال الأمين العام كوفي أنان Kofi Annan، فنتج عنها إجماع قليل علىٰ ما يجب أن تكون عليه «قواعد اللعبة» الجديدة[16]. إن من ينظرون إلىٰ الحياة العالميَّة من خلال عدسات «الواقعية» يتوقعون أن تعد راوندا وكوسوفو بكل بساطة حوادث في التاريخ الطويل للاإنسانية الإنسان تجاه أخيه الإنسان. وبالمقابل، أولئك الذين ينظرون إلىٰ العالم من خلال عدسات مثالية أَو متفائلة يأملون الآن أن هذه الحالات الاختبارية سوف تكون خطوات هامَّة إلىٰ الأمام. في بناء «نظام عالمي جديد جديد» (متردد لكنه تراكمي). في هذا السيناريو تعطي بعض مستويات القسوة ضمن دولة ما تبريراً كافياً لتدخل عسكري شرعي لوقف مثل هذا السلوك. في أي من الحالين، يبقى السؤال تحت أية شروط وما هي المعايير التي تقاس بها وبأية طريقة تستطيع الأمم أن تقرر التدخل في الشؤون الداخلية لدول أُخرىٰ بصورة قانونيَّة؟

من بين النتائج: وعي متزايد بالأحداث البعيدة التي كانت تمر في الماضي دون أن تثير أيَّة مشاعر سيما في الدّول الغنية للقيام بعمل ما. وبحسب ذلك، إن ضغط الرأي العام في دولة ما لا يؤثِّر علىٰ الحكومة فحسب لكنَّه يؤثِّر أيضاً في حكومة أَو مواطني دولة أُخرىٰ. فردود فعل العامة الأمريكيين علىٰ مأزق ألبان كوسوفو في شهر آذار 1999 كان لها نتائج علىٰ مواطني وحكومة يوغوسلافيا. وفي الوقت الذي كانت فيه الأعمال من وجهة نظر الأمريكيين أعمالاً غيرية وإنسانية، كانت تبدو للكثيرين في دول أُخرىٰ أعمال نفاق وعدوان واستعمار جديد بل وحتى إمبريالية جديدة.

- تسمح ظاهرة محطة السي إن إن CNN للناس بمشاهدة الحرب في غرف

معيشتهم وبالحكم على الأداء العسكري على الأرض أو في الجو أو يقدرون تدفق اللاجئين أو إصابات المدنيين.

من بين النتائج: يعطي من يديرون الحروب أهمية متزايدة لمسارح العمليات ويتدبَّرون الملاحظات (كما يجري في السياسة القوميَّة). فمثلاً، في حزيران 1999 أخر حلف شمال الأطلسي دخوله منتصراً إلى مطار بريشتينا في كوسوفو إلى النهار حتى يكون الضوء مناسباً للتغطية التلفزيونيَّة وللمحررين من حلف شمال الأطلسي، وتحت غطاء الليل قامت قوات روسية بردهم إلى المطار. لعل أحدث الأمور، بعد مراقبة الروس بدهشة لنجاح حلف شمال الأطلسي في تكوين رأي عام حول الحرب في كوسوفو، قامت الحكومة الروسية وقواتها العسكريَّة بجهد قوي وواسع وناجح بإدارة مفاهيم الروس حول حربها الأخيرة ضد الشيشان.

- الشبكات العالميَّة للاتصالات والتجارة جعلت النخبة تعرف أفضل البضائع والتكنولوجيات. والوعي يخلق الطلب على السلع التي يفضلها المستهلكون في كل المجتمعات بعد أن يعرفوها (من أجهزة التلفزيون والهاتف الخليوي إلى سندويش ماكدونالدز والجينز الأزرق). تنشر هذه الطلبات «التقنيات» ـ الفيزيائية والإدارية ـ التي ثبتت جدارتها في إنتاج الرخاء، من محركات الانفجار الداخلي والأقراص المدمجة إلى الملكية الخاصة القائمة على السوق، والمكافآت الخاصة (على أساس النتائج أكثر من الحاجة) والقرارات الخاصة بالاستثمار والإنتاج.

النتائج متعددة: بما أن الأداء الاقتصادي والقاعدة التكنولوجية للمجتمع هي البنية التحتية للقدرة العسكريَّة، يتعين على الدّول التي تسعى إلى تطوير قدراتها العسكريَّة الكافية لتؤكد بقاءها واستقلالها أن تتماشى مع التدفق العالمي للتقنيات المتفوقة. لا يشمل هذا المعلومات الصلبة فقط، بل يشمل المعلومات الليِّنة أيضاً كالوصول إلى الإنترنت بالنسبة للناس القادرين على تطوير

المعلومات الليِّنة أَو المشاركة في أَسواق المال. انظر مثلاً إلىٰ خيارات الحكومة الروسية اليوم. هل هناك بديل حيوي عن السعي للانضمام إلىٰ الاقتصاد العالمي؟ لقد أجاب فلاديمير بوتين Vladimir Putin بكل وضوح: لا. لهذا الاقتراح مضامين كبيرة للديمقراطية (كما يناقش فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama)، وللقبول العالمي لأفكار ومُثل وحتى للهوية والمصالح تستحق تفكيراً متأنِّياً.

- الشبكات العالميَّة، سيما في الاقتصاد تخلق طلبات من اللاعبين الأقوياء بخصوص التنبؤ بالتفاعلات وبقواعد اللعبة التي تصبح بالنتيجة جزءاً من القانون الدّولي.

من النتائج: بدءاً من GAAP (القبول العام للممارسة المحاسبية) إلىٰ العقود التي تصبح نافذة المفعول بموجب قانون التجارة في ولاية نيويورك، إلىٰ منظَّمة التجارة العالميَّة، إن القانون الدّولي يتقدم بخطى حثيثة لا محالة.

- الوعي بالمدىٰ الذي تتكوَّن فيه شروط وأحوال المواطنين في دولة ما بعوامل خارجية (كالشركات متعددة الجنسيات وتجّار العملات) ينتج، وخاصة لدىٰ الشركاء الأضعف، طلباً لحكم دولي أكبر. فبعد اجتماعات سياتل وواشنطن دي سي تأكدت «العولمة». ينتج عن إجراءات العولمة قفزة إلىٰ الوراء طبعاً. وأسباب عدم الرضا واضحة وضوحاً كافياً: تفرض العولمة تغييرات جذرية في الدّول وتسلط الضوء علىٰ عجز الحكومات القومية عن ضبط أَمن مواطنيها وسعادتهم.

من بين النتائج: تصبح الدعوات إلىٰ مؤسَّسات عالميَّة تمثِّل مصالح الأطراف المتأثِّرة دعوات معقولة. حتى جورج سوروس George Soros، الذي يعتبره البعض يمثِّل العوامل الخاصة (التي لا علاقة للدولة بها) التي تشكِّل شروط وأحوال حياة الناس حول العالم، ادَّعىٰ أنَّه بنى مؤسَّسات عبر الأمم للحكم لتساعد في تنظيم أثر القوىٰ الاقتصاديَّة التي تتجه نحو العولمة.

- القضايا عبر الأمم، كتجارة المخدرات غير القانونية والإرهاب والمرض والتهريب والجريمة المنظمة تضع تهديداً متزايداً بينما تتكاثر الشبكات العالميَّة وتقوىٰ. في التقرير السنوي للأمم المتحدة في سنة 1999 يعرِّف وزير الدفاع الأخطار عبر الأمم كأحد التحديات الرئيسيَّة للأَمن في أمريكا. «إن تجارة المخدرات غير القانونية، والجريمة المنظَّمة بما فيها القرصنة وتجارة الأسلحة غير القانونية والمواد الاستراتيجيَّة سوف تستمر في التقليل من أهمية شرعية الحكومات الصديقة، وتهديد الأقاليم الرئيسيَّة وممرَّات البحار، وتهديد سلامة مواطني الولايات المتحدة في الوطن وخارجه. وأخيراً، إن الأمراض البيئية، وتدفق المهاجرين بدون ضوابط، وحالات الطوارئ الإنسانية الأُخرىٰ سوف تقوض أقاليم من العالم بين الحين والآخر». ويتابع التقرير «الإرهابيُّون الذين تتزايد قدرتهم وقسوتهم» ويحذِّر «سوف يستمرون بتهديد أرواح المواطنين الأمريكيين تهديداً مباشراً، وسوف تسعى مؤسَّساتهم للتقليل من أهمية سياسات الولايات المتحدة وحلفائها»[17].

إن معظم الشبكات يمكن استخدامها لأغراض قانونية وغير قانونية. وعولمة الشبكات تعني أن آثار الأنشطة الصريحة يمكن الشعور بها عالمياً. مثلاً، إن تطورات الاتصالات البعيدة، وتقنيات الشحن التي جعلت في التجارة العالميَّة ثورة، وهي التي، في الوقت نفسه، قلَّلت العوائق والتكاليف بالنسبة للإرهابيين ومنتجي المخدرات. إن اجتماع العولمة مع ثورة تقنيات المعلومات قد أعطت الأفراد والمجموعات قوة خارقة في جميع أنحاء الكرة الأرضية لمتابعة أهداف بنَّاءة وأهداف تخريبيَّة. إضافة إلىٰ أن المشكلات التي بطبيعتها عابرة للأمم، كفساد البيئة والمرض، تقفز فوق حدود السيادة طبعاً. نشرت شبكات الاتصالات والنقل العالميَّة تهديدات عبر الأمم تقفز وراء الجوار المباشر إلىٰ عقد بعيدة في الشبكة.

من بين النتائج: لا يمكن حل المشكلات عبر الأمم بما فيها المشكلات

الاقتصاديَّة والبيئية والإرهابية والثقافية، والإجرامية والتهديدات الأُخرىٰ للأَمن القومي، بوسائل قومية فقط. إنَّها تحتاج إلىٰ حلول تعتمد آليات إقليمية وعالميَّة من التعاون والتنسيق. وهكذا، إن خلق الزوابط بين النقاط في جميع أنحاء الكرة الأرضيَّة (والذي تسوقه التقنيات) بأبعاد تشمل المعلومات والاتصالات والتمويل والتجارة واستخدام القوة العسكريَّة، يخلق طلباً علىٰ الحكم فوق القومي. كيف يمكن أن يعالج القادة السياسيون المسؤولون عن مكونات أضيق هذه الطلبات، هو تحدي العولمة الدائم للحكم!

ملاحظات

(1) لجنة المصالح القومية الأمريكية، America's National Interests (Cambridge, Mass.: Belfer Center for science and International Affairs, 2000) ص 15.

(2) مركز العلوم والشؤون الدولية، «International Security» MIT Press, 1976.

(3) ديفيد هيلد وآخرون David Held، «Global Transformations: Politics, Economics, and Culture.» (Stanford University Press, 1999).

(4) هيلد وآخرون ص 104، «Global Transformations».

(5) نفس المصدر ص 138.

(6) نفس المصدر.

(7) نفس المصدر.

(8) نفس المصدر.

(9) نفس المصدر ص 102.

(10) توماس فريدمان Thomas Friedman «The Lexus and the Olive Tree» (Farrar, Straus, and Giroux, 1999).

(11) نفس المصدر ص 196.

(12) نفس المصدر ص 197.

(13) نفس المصدر ص 201.

(14) نفس المصدر ص 204.

(15) نفس المصدر ص 211.

(16) انظر كوفي عنان Kofi Annan، «Human Rights and Humanitarian Intervention In The Twenty First Century». in Samantha Power and Graham Allison eds. «Realizing Human Rights: Moving from Inspiration to Impact» (St-Martin's Press, forthcoming).

(17) وزارة الدفاع في الولايات المتحدة، تقرير وزير الدفاع إلىٰ الرئيس والكونغرس (1999).

4

وليام سي. كلارك
William C. Clark

العولمة البيئيَّة

في هذا الاستكشاف للعولمة البيئية، أتبنَّى كثيراً من الإطار الفكري للعولمة من الفصل الأول، تأليف روبرت أو. كيوهين Robert O. Keohane وجوزيف إس ناي الابن Joseph S. Nye Jr.، من هذا الكتاب. وأستعمل بشكل خاص تمييزهما في ما بين العالميَّة كحالة أَو وضع و«العولمة» كعملية زيادة العالميَّة. وأشاركهم تكوين مفهوم العالميَّة في أنَّها تتألَّف من شبكات من الاتصالات بين عوامل (دولة أَو غير دولة) في مسافات قارية متعددة، يتوسطها تنوع مفتوح الجوانب من التدفقات التي تشمل الناس والمعلومات والأفكار والقوة ورأس المال والبضائع والمواد. ويتبع هذا الفصل أيضاً خط التفكير الذي يعزوه كيوهين وناي إلىٰ ديڤيد هيلد David Held، معترفين بأن جذور العالميَّة عميقة وإن كانت علىٰ العموم «رقيقة»، ومركِّزين الانتباه علىٰ تحديد عمليات العالميَّة ـ التي يسمّونها عمليات العولمة ـ والتي من خلالها تصبح تلك الجذور «كثيفة» بشكل متزايد[1]. إن «تكثيف» العالميَّة صورة غامضة مفيدة استخدمها، متبعاً كيوهين وناي، في تشخيصي لمدى العولمة البيئيَّة لأوجّه الانتباه إلىٰ زيادات ممكنة في تنوّع وقوة وكثافة العلاقات البعيدة في ما بين العوامل، وعدد

العوامل التي تدخل في تلك العلاقات، وسرعة التغيّر في المجتمع التي تساعد تلك العلاقات المتغيِّرة في حدوثها[2].

ضمن إطار فكري واسع يركِّز على شبكات العلاقات القارية بين العوامل الاجتماعيَّة، تبرز ثلاثة أنواع من الروابط على أنَّها هامة في فهم كيف تظهر البيئة في العلاقات بين العوامل على نطاق متعدد القارات. الرابطة الأولى وأسميها «المادة البيئيَّة» التي تعالج طرقاً تتدفق فيها الطاقة والمواد والعضويات من خلال البيئة، وتربط بين أعمال الناس في مكان ما وبين التهديدات والفرص التي يواجهها الناس على بُعد مسافات شاسعة. والرابطة الثانية «أفكار بيئيَّة» تعالج طرقاً يثير بها الناس البيئة في بناء علاقاتهم مع أناس آخرين في أماكن بعيدة عنهم. والرابطة الثالثة «حكم البيئة» تناقش التغيرات التي تطرأ على أشكال العوامل والمبادئ والتوقعات التي برزت عندما تصارعت المجتمعات مع عولمة «مادة البيئة» و«أفكار البيئة».

عولمة «المادة البيئيَّة»

من السهل بيان أمثلة من «مادة البيئة» التي تأتي لتأخذ شكلاً في العلاقات بين العوامل على نطاق في ما بين القارات: جراثيم الأوبئة، والمواد المشعَّة التي تسقط من اختبارات جوية للأَسلحة النووية، وانطلاق غازات البيت الزجاجي، وعدد قليل آخر قد يكون في ذاكرة معظم الناس. ولكن من أجل بناء فهم نقدي لمدى العولمة البيئيَّة وأحوالها وأهميتها، يجب المضي إلى أبعد من القوائم المختارة إلى معالجة نظامية لأنواع الروابط التي يجب أن تشملها العولمة البيئيَّة، وإلى تحليل تجريبي يبيِّن أية رابطة من تلك الروابط تهم. يجب أن تبدأ مثل هذه المعالجة النظامية من الأرض كنظام.

كما برز فهم نظام الكرة الأرضية خلال العقدين الأخيرين، لقد كشف أن بيئة الكوكب تتشكَّل من روابط معقَّدة في ما بين الغلاف الجوي، والمحيط، والتربة، والنباتات (الشكل 4 ـ 1). ينسج خيط مشترك واحد في ما بين هذه

الأنظمة، وهو تدفق طاقة تسيِّر دوران المحيطات والغلاف الجوي، وتولِّد المناخ، وتقوِّي التمثيل الضوئي، وتحيطنا بالضوء والحرارة والأشعة المتأينة. وترتبط بتدفق الطاقة ارتباطاً وثيقاً الدورة الهيدرولوجية الأرضية. وخيط مشترك آخر هو تدفق المركبات الكيميائية الكبيرة من الفحم والنتروجين والأوكسجين والكبريت والفوسفور. وأخيراً، تعرفت وجهات النظر الحديثة حول نظام الكرة الأرضية علىٰ أثر الحياة الموجودة في كل مكان في تدفقات الطاقة والمواد المتفاعلة علىٰ الكوكب. أحد أشكال الحياة هذه ـ جنسنا البشري ـ معروف الآن بأنَّه يؤلِّف قوة هامة في تشكيل بيئة الكوكب، حتى عندما تشكلت بدورها من العالم الذي ساعدت هي بإيجاده. إن نتيجة هذه التفاعلات المضاعفة نظام معقَّد من التغير ـ تغيّر في مقاييس الزمن الذي يراوح من الثواني إلىٰ بلايين السنين، وفي مقاييس المكان الذي يمتد من المحلي إلىٰ العالمي. إن العمليات التي تكمن وراء هذه التغيرات في نظام الأرض تبين مقياساً آخر يراوح من الإعصار الحاد المحلي إلىٰ التشوّه الأرضي البطيء إلىٰ انسياح القارات (شكل 4 ـ 2).

روابط الطَّاقة

إن طبيعة نظام الكرة الأرضية ـ قبل وبعد ظهور الجنس البشري ـ هي تلك الاضطرابات في مخزون طاقة الأرض علىٰ نطاق محلي يمكن أن تتحرَّك صعوداً في المقياس لتخلق آثاراً واسعة النطاق علىٰ بعد نصف الكرة الأرضيَّة.

إن الأُسس النظرية والتأثيرات الكامنة للصلات البعيدة عرَّفها جون ڤون نيومان John Von Newmann قبل نصف قرن تقريباً إذ شخَّصها بصورته المثيرة «بأثر الفراشة» علىٰ الطقس العالمي. إنَّها اليوم ماثلة في قلب جهود التنبؤ المركزة علىٰ ظاهرة النوسان الجنوبي «النينو»، حيث تنعكس تغيرات درجات الحرارة السطحية في المنطقة المدارية للمحيط الهادي بتغيرات في الرياح الموسمية الهندية وبأحداث من زيادة الحرارة أَو الجفاف في مناطق بعيدة حتى شمال شرق أمريكا الشمالية، والساحل الشرقي لأمريكا الجنوبية، وأفريقيا[3]. لقد تم توثيق

الشكل 4 ـ 1:

عمليات النظام الأرضي

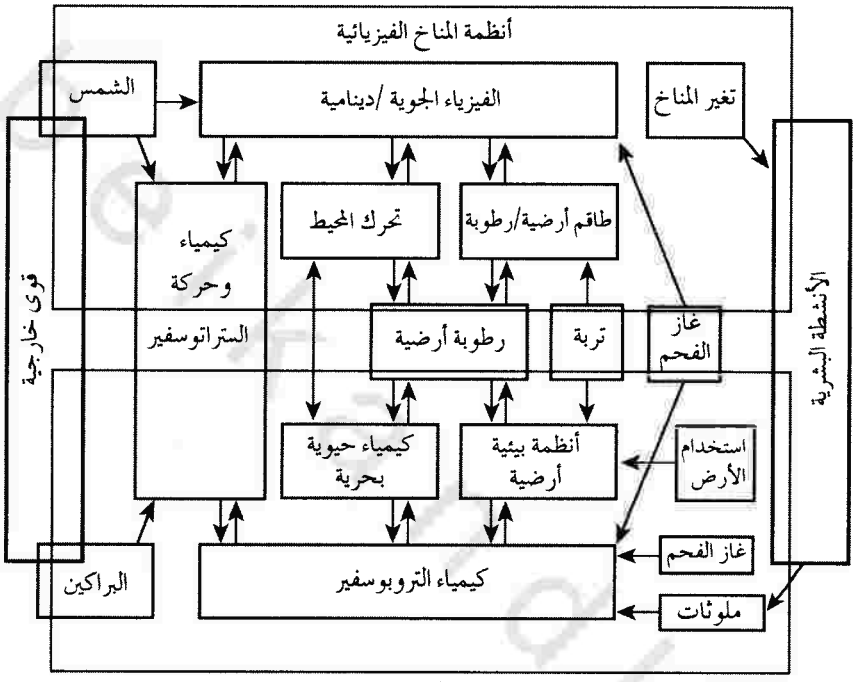

الكثير من الصِّلات الطبيعية الإضافية علىٰ نطاق عبر القارات، ويشمل ذلك التناوب في الضغط عند مستوىٰ سطح البحر (بدور مقداره عشر سنوات) في شمال الأطلسي فيؤثِّر في ظواهر مختلفة كدرجات الحرارة الشتوية في سيبيريا، وتجمع سمك البقلاة في شمال غرب الأطلسي، وتوازن كتل الجموديات الأوروبية[4]. وبحسب علمنا، كل هذه الصلات البعيدة ظواهر طبيعيَّة. لكنها مع ذلك من الواضح أنَّ لها قوة كامنة تجعل البيئة تدخل بعلاقات في ما بين العوامل البشرية علىٰ نطاق عابر القارات. وفضلاً عن ذلك، توجد أسباب جيدة لشكنا في

أن بعضاً من هذه الصِّلات البعيدة يمكن أن تتغيَّر ـ وبالفعل قد تغيَّرت ـ بأنشطة البشر التي تؤثِّر في المناخ أَو في الدورة الهيدرولوجية[5].

الروابط المادِّيَّة

علىٰ الرغم من أن التغير في الصِّلات البعيدة المناخية الطبيعية بواسطة الأنشطة البشرية قد تبدو علىٰ أنَّها الناحية الأكثر درامية في العولمة البيئيَّة في المستقبل، فإن ناحيتين أخريين من الروابط بعيدة المدىٰ للمادة البيئيَّة كانتا هامتين أكثر بالنسبة لشؤون البشر في الماضي والحاضر وهما: تدفق المادة وتدفق النباتات.

مواد كثيرة في نظام الأرض تدخل في حركة متواضعة فقط، وبذلك ترتبط أقدار العوامل البشرية علىٰ المستوىٰ المحلي إلىٰ المستوىٰ القاري. قد تكون الآثار المحلية هامة جداً، كأثر تآكل التربة علىٰ جوار مسيل جدول أَو الأثر المنطلق من معمل قريب من المدن أَو الأقاليم. لكنها ليست مادة العولمة. علىٰ العموم، إنَّه من خلال الوجود فقط في الدوران الواسع النطاق للغلاف الجوي أَو من خلال النقل المقصود من قبل البشر، يصبح نقل المواد هاماً في العلاقات بين العوامل علىٰ مسافات عابرة للقارات.

لقد كان نقل الإنسان للمواد الخطرة علىٰ البيئة كالمواد السامَّة والنفايات السامَّة علىٰ مستوى القارات موضوع اهتمام متزايد في السنوات الأخيرة[6]. ليس السؤال إن كان هذا النقل قد ازداد كثيراً في فترة ما بعد الحرب. يعود جزء من السبب إلىٰ زيادة التجارة في مثل هذه المواد في عالم يتجه نحو العولمة، ويعود جزء آخر إلىٰ التعليمات المحلية التي تزيد من الحوافز لإرسال مواد مؤذية للبيئة إلىٰ مكان آخر. لقد أعلنت بضع فضائح شملت «نقل» هذه المواد من دول الشمال إلىٰ دول الجنوب مما أدَّىٰ إلىٰ جعل نقل مثل هذه المواد يخضع ـ من حيث المبدأ علىٰ الأقل ـ إلىٰ تنظيم ورقابة دوليين. لكن في الوقت الحالي يبقى استخدام مثل هذه المواد والتخلّص منها محلياً علىٰ نطاق واسع، مع جزء صغير (أقل من 10٪ من النفايات السميَّة) تشحن فعلاً إلىٰ مسافات عبر القارات.

الشكل 4-2. مقاييس النظام الأرضي ـ المقياس المكاني

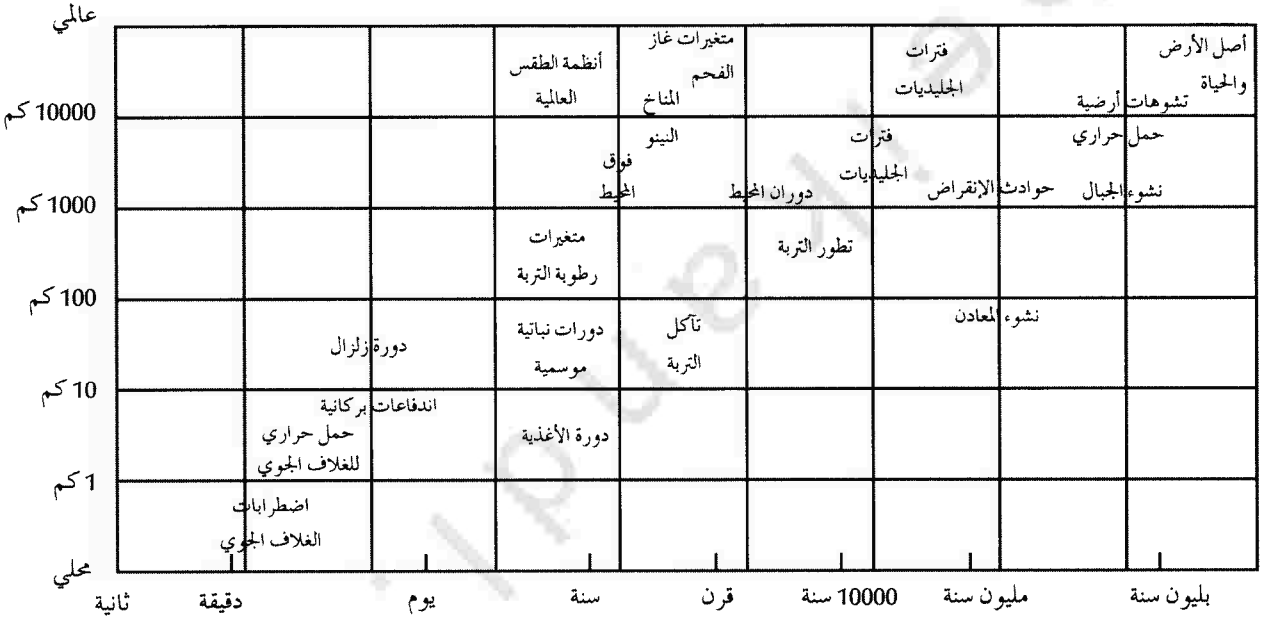

المصدر: معدل من الشكل 302 من NASA: Earth systems science overview: A program for Global Change

ملاحظة: تري الأرقام العلاقة بين الزمن والمكان لعمليات النظام الأرضي المصورة 4-1، في المحاور لوغارتيمية.

إلىٰ حد بعيد، إن أهم طريقة ـ وأكثرها سرعة في التغير ـ تظهر فيها البيئة في علاقات ما بين القارات اليوم تشتمل علىٰ زيادات في الأنواع والمقادير من المواد التي يحملها الدوران العالمي في الغلاف الجوي. لا تبقى معظم هذه المواد في الغلاف الجوي فترة كافية للانتقال عبر القارات، فهي تتساقط عوضاً عن ذلك بواسطة الجاذبية، أَو تنحل في المطر أَو يمتصها، أَو تتحوَّل كيميائياً إلىٰ شيء آخر. لكن بعض الغازات كأول أكسيد الفحم أَو ثاني أكسيد الفحم أَو الميتان أَو النتروجين أَو أوزون التروبوسفير، أَو كلوروفلوروكاربون تعيش فترة كافية لتصبح موزَّعة وتؤثِّر في البيئة علىٰ بُعد آلاف الكيلومترات عن مكان صدورها[7]. وأشياء أُخرىٰ، منها ما يُسمَّى الملوثات العضوية الدائمة فهي قابلة لتطير مرة أُخرىٰ فوق ترسبات، ومن خلال عدة حوادث انتقال فإنَّها تنتهي بوصل المجتمعات الصناعيَّة متوسطة الارتفاع بالضباب القطبي أَو طيور البطريق المسممة[8]. وأخيراً تستطيع ذرات ناعمة من مواد ثقيلة كالرصاص أن تنتقل إلىٰ مسافات عبر القارات كما يثبت توضع رمال الصحراء الكبرى في أوروبا أحياناً، وإصدارات الرصاص الصناعي في جموديات غرينلاند. في الواقع إن أية مادة تقريباً، إن أنتجت بكمية كافية وبحث عنها بصورة كافية، فسوف يكون لها كتلة كافية في «الذيل» الطويل لتوزعها البعيد لتبني آثاراً قابلة للقياس علىٰ النطاق العالمي.

وفي بعض الأحيان تقدم عمليات طبيعية كميات كافية من المواد إلىٰ البيئة المحلية ليكون لها آثار عالميَّة. مثال مشهور سقوط الأمطار في أوروبا وشمال أمريكا «عام بدون صيف» من خلال آثار التبريد لنافثات السلفات التي حقنت في الستراتوسفير بثوران بركان تامبورا 1815 في أندونيسيا. لكن إضافة إلىٰ مثل هذه الروابط الطبيعيَّة فإن صدور عدد من المواد القابلة للبقاء والانتقال إلىٰ مسافات بعيدة قد زاد زيادة درامية في فترة ما بعد الحرب[9]. إن إمكانية التغير البيئي تتخذ أشكالها بصورة هامة في العلاقات بين العوامل علىٰ نطاق عبر القارات

وتنمو بموجب ذلك، أكثر ما تكون كظاهرة في السنوات الخمسين الماضية.

يعتمد تحقيق تلك الإمكانية طبعاً على ما إن كانت العوامل المشمولة حسَّاسة أَو ضعيفة أمام نتائج نقل المواد إلى مدىً بعيد، أَو أنَّها تتعلق بها. وقد تكون الأبحاث والمراقبة الحديثة أظهرت أن كثيراً من إمكانات البيئة للنقل البعيد لم تكن الأساس لكثير من القلق. وتاريخ الاكتشافات خلال نصف قرن مضى هو واحد تقريباً من الإيحاءات المدهشة، بأن آثار النقل البعيد للمواد هي أكثر تعقيداً وأكثر ضرراً مما كان يفترض أصلاً[10]. شملت الاكتشافات في الستينيَّات التوزيع العالمي وآثار السترنتيوم Strontium 90 جراء اختبار الأَسلحة في الغلاف الجوي، ومركب ددت DDT للقضاء على الحشرات. وأضافت اكتشافات السبعينيَّات الانتباه إلى نفاد غاز الأوزون من الستراتوسفير الذي يدفعه غاز كلوروفلوركاربون ومركبات هالوجينية أخرىٰ خطرة في تدمير الأوزون وذات عمر كيميائي كاف لتصل إلى الستراتوسفير. إن احتمال تسخين مناخ الأرض الذي تسببه إصدارات متزايدة من أكسيد الفحم ذي العمر الطويل معروفة منذ القرن التاسع عشر. ولكن في الثمانينيَّات ازداد الاهتمام زيادة كبيرة إذ اتضح أن الإسهامات الإضافية من غازات البيت الزجاجي كالميتان والنتروجين والكلوروفلوروكاربون يمكن أن تسرّع وتضخّم أثر غاز الفحم. ولقد قدم العقد الماضي طرقاً أكثر للاهتمام تراوح من انقطاعات في دورة النتروجين العالميَّة إلى التخفيضات العالميَّة في استطاعة الغلاف الجوي على تنظيف نفسه، وأدَّى ذلك إلى زيادات عالميَّة أسرع في تركيز معظم الملوثات[11]. «يحتمل فقط أن يزداد الاعتراف بإمكانية المفاجآت البيئية من خلال تدفق المادة العالميَّة المعمقة»[12].

الروابط الحيوية

تمضي معظم العضويات حياتها محدودة في أجزاء صغيرة نسبياً في المدىٰ تحت القاري الذي يضع الحدود لمعظم الأجناس لتلائم البيئة. وتدخل

هذه العضويات في لعبة العلاقات عبر القارات بين العوامل الإنسانية فقط، عندما كانت الأجناس المعزولة في السابق مرتبطة من خلال عمليات الانتقال الجديدة أَو المعمقة. لكن قليلاً من العضويات تهاجر طبيعياً لمسافات عبر القارات. وتشمل هذه العضويات عدداً قليلاً من الحشرات، وعدداً أكبر من الأسماك والحيوانات اللبونة التي تعيش في المحيطات، وجزءاً هاماً من الطيور من المناطق المعتدلة[13]. فهجرتهم تعطي رابطة مباشرة وغالباً ما تكون حيوية هامة في ما بين المجتمعات الإنسانية بمسافات عبر القارات، روابط يمكن كسرها من خلال انقطاع في أشكال الهجرة الطبيعية.

إن أكثر أشكال العولمة مفاجأة في الروابط الحيوية اشتملت على تحركات بين الحين والآخر (بمساعدة عمليات انتقال الإنسان عادة) الحشرات أَو العضويات الممرضة من مواطنها الأصلية إلى أماكن لم تكن بها أصلاً حيث لم يطور الناس المقيمون، أَو أشكال الحياة الأُخرى التي نقدرها، حماية ضد أولئك الغزاة. والأمراض الوبائية، وهي أشكال أخرى من انتشار الحشرات، وكبح أَو إلغاء الأجناس الأصلية، غالباً ما تكون النتيجة هكذا. لقد تابعت بضع دراسات تاريخيَّة ممتازة الآثار في شؤون العالم من هجرات الأمراض عبر القارات[14]. تقوم برامج ناشطة للأبحاث والمراقبة بعملها لتقلِّل من فرص حدوث مثل هذه الهجرات غير المرغوب بها في المستقبل. الغزوات البعيدة التي تقوم بها عضويات «غريبة» أُخرى مع ما يقرب من 20٪ من بعض النباتات القارية يمثلها الآن مهاجرون جدد نسبياً[15]. فآثار مثل هذه الغزوات البعيدة واسعة جداً وتمثِّل السبب الرئيسي في تحوّل استعمال الأرض وانقراض الأجناس[16]. إن المعطيات حول معدلات الغزو متناثرة لكنها تقترح تسارعاً كبيراً في الحدوث والمدى بسبب الزيادات في التجارة والسياحة والسفر عموماً[17]. وكما لاحظ تحليل أحد المفاهيم، «إن نقل الإنسان للأجناس حول الكرة الأرضية يجعل أشكال الحياة على الأرض متجانسة»[18].

طريقة ثانية أثرت بواسطتها هجرة العضويات هجرات بعيدة في العلاقات القارية بين العوامل البشرية هي من خلال انقطاع مجموعة من الهجرات النظامية التي تعتمد عليها مجموعة أُخرىٰ أَو تقيّمها. وتستطيع هذه أن تشمل حصاد عضويات مهاجرة (مثلاً سمك السلمون) أَو الوطن الذي تعتمد عليه العضوية المهاجرة (مثلاً تدمير الأراضي الشتوية في أمريكا الوسطىٰ التي هي موطن طيور مغردة من أمريكا الشمالية). كانت العلاقات بين العوامل المتعلقة بحصاد الأجناس المهاجرة موضوع معاهدات وترتيبات متعلِّقة بها منذ زمن طويل علىٰ الرغم من زيادة انتقال الحاصدين، أكثر من العضويات المحصودة، تجعل القضية موضوعاً لعلاقات عبر القارات[19]. إن آثار الأجناس المهاجرة عبر القارات في تدمير الموطن المحلي كان يجب أن تقدر وتنظم نوعاً ما في ما بعد[20]. إن فهم هذه الروابط المعقدة غير كامل ومتناقض، كما في النقاش الحالي حول العلاقة بين تدمير غابات أمريكا الوسطىٰ، والتراجع الممكن في أعداد الطيور المغردة في الشمال الشرقي من أمريكا الشمالية[21]. لكن الدليل المتوفر يقترح اتجاهاً متسارعاً في تكرار وتأثير مثل هذه الانقطاعات[22].

«المادة» المتفاعلة

يوجد دائماً درجة من العالميَّة في الطرق التي تتوسط بها تدفقات المادة البيئيَّة التي تشمل الطاقة والمواد وأَشكال الحياة في العلاقات بين العوامل البشرية. والجديد هو الكثافة المفاجئة لتلك العلاقات خلال نصف قرن مضىٰ، كثافة نتجت من زيادة في الأعداد والاستهلاك والصِّلات الاقتصاديَّة بين سكان العالم بشكل أولي. وتعني هذه الكثافة أن أنشطة إنسانية أكثر وأكثر قام بها أناس أكثر في أجزاء أكثر وأكثر من العالم تفرض آثاراً أكثر وأكثر علىٰ الناس علىٰ نطاق عبر القارات. فضلاً عن ذلك، تلك التأثيرات متفاعلة بشكل متزايد. يبين مثال واحد فقط من معظم الأمثلة الحديثة التصويرية، أن تسخين المناخ والحمض يجتمعان لتخفيض تركيز المواد العضوية المنحلة في البحيرات، والتي

بدورها تسمح بنفاذ أعمق للأشعة فوق البنفسجية «ب» وآثارها المصاحبة لها في الحياة. إن الأضرار الناجمة عن الأشعة فوق البنفسجية «ب» أكثر اتساعاً وتفاقماً من تلك التي تعزىٰ إلىٰ نفاد الأوزون في الستراتوسفير[23]. وبشكل عام، خلص تقرير حديث من مجلس الأبحاث القومي في الولايات المتحدة إلىٰ أن «معظم المشكلات البيئيَّة الإفرادية التي شغلت معظم انتباه العالم حتى تاريخه لا يحتمل أن تقوم بنفسها بمنع التقدم الكبير في [تلبية الأهداف الاجتماعيَّة] خلال الجيلين القادمين... والأكثر إزعاجاً بعبارة ملطفة... التهديدات البيئيَّة التي تنشأ من الضغوط المتزايدة والمتراكمة والمتفاعلة التي تسوقها الأنشطة الإنسانية المتنوعة»[24].

عولمة الأفكار البيئيَّة

كيف شكَّلت الأَفكار حول البيئة علاقات الناس في ما بينهم علىٰ مستوىٰ القارات؟ وكيف تغير دور الأَفكار البيئيَّة في توسط مثل هذه العلاقات مع مرور الزمن؟

إدارة كوكب الأَرض

من المغري أن نجيب عن هذه الأسئلة من مفهوم عقلي مباشر. فمن مثل هذا المفهوم، أن الدليل المتنامي عن المادة البيئيَّة المتصلة عالمياً، يتوقع أن تؤدي إلىٰ ظهور طلب علىٰ سياسة بيئيَّة عالميَّة مقارنة وعلىٰ إدارة لها. ويبدو أن هذا يحدث إلىٰ درجة كبيرة.

فعلىٰ سبيل المثال يكتب ريتشارد بنيدك Richard Benedick، وهو مفاوض الولايات المتحدة إلىٰ معاهدة مونتريال حول المواد التي تقلص طبقة الأوزون، عن «عبارة جديدة» للمعالجة الدبلوماسية للتحديات مثل نقص الأوزون التي «لا تستطيع أي دولة منفردة أَو مجموعة من الدّول مهما كانت قوية أن تحل المشكلة حلاً فعالاً. وبدون تعاون واسع المدىٰ، لن تكون أية جهود من بعض الدّول لحماية طبقة الأوزون هامَّة»[25]. لقد برزت بالفعل هيئة كبيرة لبحث البيئة

العالميَّة ومراقبتها وتقييمها ـ تعالج القضايا من تغير المناخ إلىٰ الحفاظ علىٰ الحيتان ـ مكرسة لمهمة تقديم هذه «العبارة الجديدة» من خلال تشكيل معرفة علمية جماعية علىٰ مستوىٰ العالم حول السبب والنتيجة اللذين يمكن أن تؤسَّس عليها إدارة متنورة للعامة في العالم[26]. ويسعى جهد بنفس الطموح تقريباً لتشريع ممارسات جيدة علىٰ المستوىٰ العالمي وأدوات سياسة تستطيع جعل الجهد الكلي يتعلَّق مع روابط البيئة العالميَّة بشكل أكثر جدوىٰ وفاعلية[27].

تستفيد كل هذه المبادرات من الاتجاهات الحديثة والمشجعة لمعدل تحول المعلومات ومداه. فتنتشر المستجدات العلمية المتعلِّقة بالموضوع حول الكرة الأَرضية في غضون ساعات أَو أيام بدلاً من سنين وعقود. وأكثر من ذلك، تنتقل الآن القضايا البيئيَّة المعاصرة إلىٰ مسافات عبر القارات إلىٰ أجندات (جداول أعمال) العامة والنخبة السياسيَّة في آن معاً عملياً حول العالم[28]. إن النتيجة الصافية هي أن تغير الأفكار حول الشخصية العالميَّة للروابط البيئيَّة قد أوجد رد فعل مدهشاً عقلاني الصورة ـ ولو لم يزل غير كامل ـ في البحث، والتنمية، والسياسة حول العالم. فضلاً عن ذلك، تُظْهِر هذه العملية العالميَّة للتعلم الاجتماعي كل إشارة للتسارع، الذي يحدث اليوم بمعدلات قد يكون لها ترتيب ضخامة أسرع من تلك التي وضعها ريتشارد كوبر Richard Cooper للنقل العالمي للأفكار إلىٰ أعمال في مملكة الأمراض السارية والحجر الصحي قبل قرن مضى[29].

النقاء والخطر

يمكن أن يحقِّق الإنسان، وكذلك البيئة، مكاسب كبيرة وذلك بجعل الجهود لإدارة التغير البيئي العالمي جهوداً عقلانية. ولكن بعد ذلك القول، لقد كان دور الأفكار حول البيئة في بناء علاقات بين العوامل في مسافات بعيدة دوراً معقداً بل وأكثر تعقيداً من «العبارة الجديدة» التي يقترحها بنيدك Benedick لقد وصل إلينا تحذير مفيد عن مدىٰ التعقيد من خلال تقارير من علماء الإنسان

(الأنثروبولوجيا) من أمثال ماري دوغلاس Mary Douglas التي ترى طرقاً كثيرة تبرز فيها البيئة كأداة تركيب للعلاقات الاجتماعيَّة، للتمييز بين «الأنقياء» و«الملوثين» من الناس، أَو بين الممارسات «السليمة» و«الخطرة» في كل من المجتمعات «البدائية» و«الحديثة»[30]. ولرؤية كيف حدث مثل هذا البناء في ظروف أقل بدائية، تهمنا هنا، ينبغي ألا نتطلع إلىٰ أبعد من واحدة من المبادرات البيئيَّة العالميَّة السابقة: إنَّها مساعي محميات الحيوانات المتوحشة وراء البحار في القرن التاسع عشر[31].

ففي أواخر القرن التاسع عشر كانت الحيوانات الكبيرة التي تزداد ندرتها في أفريقيا والهند يصطادها الرياضيّون من الشمال والرعيان (الغاضبون) والصيادون من الجنوب. وبتعريف الحيوانات الكبيرة أنَّها حيوانات نادرة وبأنَّها حيوانات معرَّضة للخطر، فإنَّنا نحتاج ـ لمصلحة العالم ـ أن نحافظ عليها، اعتبر المحافظون الرياضيّون أهداف السكان المحليين غير شرعية وغير مبررة. ونتج عن هذا جلوس البيض في نواد أوروبية خاصة مستبعدين الرعاة والصيادين المحليين (وهم الآن الصيادون اللصوص) من استخدام أراضيهم الخاصة، وكل ذلك مبرر بأنَّه هموم بيئيَّة جديدة بدلاً من أنّه «حقوق» استعمارية قديمة. بدون أي سؤال، إن أي عدد من الأجناس الجميلة والرائعة من الحيوانات اللبونة التي عاشت حتى القرن الحادي والعشرين إنما عاشت بفضل جهود المحافظة تلك. ولكن من الواضح بصورة متساوية، أن الأفكار البيئيَّة للحفاظ عليها أَصبحت ـ عن عمد أَو غير عمد ـ امتداداً للاستعمار في القارات ولكن تحت اسم آخر.

ليست قصة محمية «الصياد الأبيض» مجرد فضول تاريخي. يدفع دعاة التنوع الحديث، بنوايا جيدة متساوية، لتعريف عدد قليل من «البقع الساخنة» حول العالم ـ علىٰ أساس غناها بالأجناس ـ تحبِّذ التدخّل العالمي لحمايتها من الاستخدامات غير تلك التي تزيد في حماية مواطنها. والجدل الدائر اليوم حول إصدار غازات البيت الزجاجي في السابق من قبل عدد قليل من الشماليين

الأثرياء (نسبياً)، هل يجب أن توزن بصورة متساوية من قِبل أنظمة الإدارة العالميَّة مع حاضر ومستقبل الإصدارات من الجنوبيين الكثيرين والفقراء نسبياً، وهذا في الوقت نفسه يتعلَّق ببناء علاقات إنسانية مع طبيعة الكرة الأَرضية، وعلاقات إنسانية مع الأَرض نفسها. وبالتأكيد، إن برامج الإدارة التي يدافع عنها المحافظون العصريّون ومفاوضو التلوث هم عموماً أقل تحيّزاً عرقياً وأكثر مشاركة من أجدادهم. ولكن تبقى الحقيقة أن الأَفكار البيئيَّة يتزايد استخدامها لبناء علاقات قوة بين العوامل علىٰ نطاق ما بين القارات، تماماً كما كانت تستخدم لبناء تلك العلاقات الاجتماعيَّة في ظروف أكثر محلية. إن عولمة الأَفكار البيئيَّة هي علىٰ الأقل قصة اجتماعيَّة وسياسيَّة بقدر ما هي قصَّة مادية.

تطور متوازن

لقد برزت مجموعة أفكار خلال العقدين الماضيين تظهر بعض الفرص لردم الفجوة بين المفاهيم المتعلقة بتغيير البيئة العالميَّة القائمة علىٰ أساس علمي وتلك القائمة علىٰ أساس سياسي. وهذه أفكار «التطور المتوازن»، مجموعة مفاهيم متنوعة وغامضة لكنها تشترك بالتزام مبدئي، وبكلمات هيئة برندث لاند Brundthland Commission «لعصر جديد من النمو الاقتصادي، نمو يجب أن يكون علىٰ أساس سياسة تحتمل قاعدة المصدر البيئي وتوسعه»[32]. تحتوي أفكار التحمّل تلك مكاناً للهموم البيئيَّة الكلاسيكية عبر القارات حول تغيّر المناخ ونفاد الأوزون. ولكنها تذهب إلىٰ ما وراء هذه القضايا البيئيَّة العالميَّة لتوحد مجموعة هموم مشتركة عالمياً ومتوضعة محلياً حول تلبية حاجات الإنسان من الأمن الغذائي والطاقة والإنتاج الصناعي والسكن وموارد المحميات بطرق متوازنة بيئياً[33]. ولعل الأكثر أهمية، هو الأَفكار حول التوازن التي جاءت لتوحد موقفاً أكثر فصاحة بوسائل مفضلة إضافة إلىٰ أهداف نهائية. وتعكس بصورة خاصة إجماعاً متنامياً للجهود الفعَّالة لجعل طموحات الإنسان عقلانية ولجعل الحدود البيئيَّة علىٰ المدىٰ الطويل لا تحتاج إلىٰ فهم العولمة

فقط، بل إلىٰ التزام بالديمقراطية أيضاً، وهي نقل فعَّال للمجتمع المدني من القاعدة الشعبية إلىٰ الأعلىٰ وذلك لتنشيط حركة التوازن[34].

إن أَفكار التوازن ـ وهي التي توحد هموم التحسن البيئي والإيكولوجي وكذلك المفاهيم العالميَّة والمحلية ـ كانت مركزية في مؤتمر الأُمم المتَّحدة للبيئة والتنمية في سنة 1992، وترددت بعمق واتساع حول العالم خلال العقد الماضي. وبالنسبة للكثيرين ـ في القطاع الخاص والقطاع الحكومي والقطاع غير الحكومي ـ تبرز هذه الأَفكار كإطار مفضل ومرجعي لبناء العلاقات حول المواضيع المشتركة للعولمة البيئيَّة والاقتصاديَّة والديمقراطية[35].

عولمة الحكم البيئي

اتخذت البيئة أيضاً شكلاً في العلاقات بين العوامل علىٰ نطاق قاري من خلال عولمة الحكم البيئي[36]. ومن الواضح جداً أن علاقات الحكم العالمي تشمل المعاهدات الرسمية بين الدّول التي تحكم القضايا البيئيَّة في ما بين القارات. وبشكل عام تشتمل علىٰ مدىٰ واسع من العلاقات التي تحكم التفاعلات ضمن الحكومة وفي ما بين الحكومات، والشركات والمدافعين عن البيئة حول العالم. وتراوح الأمثلة من المقاييس المادية الطوعية للممارسة البيئيَّة المتجسدة في منظمة المقاييس الدّولية ISO 14000 أَو مبادرة «العناية المسؤولة»[37] إلىٰ الضغوط التي تضعها «لجنة السَّلام الأخضر» علىٰ عمليات شركة شل للزيوت النيجرية.

إن الجدول الذي طوَّره ناي Nye وزملاؤه (الشكل 4 ـ 3) في سياق دور الحكم المتغير يقدم فهماً مفيداً لتنظيم دراسة كيف تم حمل هذه العوامل المختلفة في هذه العملية.

الحكومة

علىٰ مستوىٰ دولة الأمة، قد يكون الإسهام الكبير المفرد في العولمة هو

نسخ التعليمات البيئيَّة من دولة إلىٰ دولة أُخرىٰ. وهذا الأثر ـ بحسب معرفتي ـ لم يصبح كمّاً علىٰ المستوىٰ العالمي. ولكن علىٰ عدد من المثقفين علىٰ الدرجة التي التقت عندها التعليمات البيئيَّة القومية عبر الدّول[38]. وعلىٰ مستوىٰ أكثر رسمية فقد تم توقيع أكثر من 150 اتفاقية بيئيَّة عالميَّة، وأكثر من ثلثيها من الحرب العالميَّة الثانية، ونصفها منذ سنة 1970. كثير من هذه الاتفاقيات محدودة المجال أَو إقليمية النطاق. ولكن توجد الآن اتفاقيات هامَّة ذات مجال عابر للقارات تشمل ما تصدره محركات الطائرات، وتغير المناخ، وحماية طبقة الأوزون، وشحن المواد الكيمائية الخطرة ومبيدات الحشرات، وتفريغ النفايات في البحر، وألغام قاع البحر، وصيد الحيتان، والتنوّع الحيوي، والأجناس المهاجرة أَو الأجناس النادرة المهدّدة بالإنقراض، والأراضي الرطبة، والتصحر، ومصادر النباتات الجينية، والأخشاب المدارية، والسلامة النووية[39]. وتعمل هذه الاتفاقيَّات بدرجات متفاوتة من الكفاءة، لكنها في أحسن الأحوال أوجدت التغير القابل للقياس في الضغوط التي تمارسها الأنشطة البشرية علىٰ البيئة[40]. واتخذت الالتزامات الإضافية بين الدّول القوميَّة شكل تحويلات مالية متواضعة، غالباً ما تكون ثنائية في طبيعتها، والتي قد تصل بمجموعها إلىٰ بضعة بلايين من الدولارات في السنة، مقدار يساوي تقريباً ما تقدمه بنوك التنمية المتعددة الأطراف[41]. وزادت مبالغ المساعدة هذه خلال الثمانينيات لكنها استقرَّت بعد مؤتمر ريو في سنة 1992، وبالنسبة لعدد من المصادر فقد تراجعت خلال السنوات الأخيرة.

لقد لعبت المنظَّمات الحكومية دوراً هاماً في عولمة البيئة منذ ظهور منظَّمات الحماية العالميَّة في القرن التاسع عشر[42]. واليوم تؤدي منظومة من المنظَّمات البيئيَّة الحكومية الحالية والدائمة عدداً واسعاً من الوظائف تراوح من التنسيق في البحث والمراقبة من خلال تأمين تقديرات علمية وتنشيط المؤتمرات العالميَّة، إلىٰ استخدام الدعم وتأكيد الالتزام. ليس هذا المكان مناسباً لمراجعة

الأدبيات المزدهرة حول هذه المنظَّمات وفعالياتها[43]. لكن من الواضح تماماً أن شبكات الاتصالات القائمة بين المنظَّمات الحكومية التي تعالج القضايا البيئيَّة قد تكثَّفت بشكل كبير خلال العقود الماضية. لقد فعلت ذلك بصورة جزئية عن طريق الوصول إلىٰ المنظَّمات (كالبنك الدولي مثلاً) وأنظمة (كالتجارة العالميَّة مثلاً) التي أخذت حيزاً ضيقاً من الروابط البيئيَّة بين الدّول في السابق. وطوَّرت مستوىٰ معمقاً من الحرفية والمهارة. وفي العملية، أَصبح كثير منها بطيء الحركة ومحافظاً في طرق بيروقراطية كثيرة في كل مكان. والسؤال المهم لها في العقود المقبلة ما إذا كانت ستحافظ علىٰ الدور الهام في العالميَّة البيئيَّة أم أنَّها بدلاً عن ذلك ستحل محلها منظَّمات غير حكومية أكثر رشاقة يتزايد انضمامها إلىٰ المسرح البيئي العالمي.

الشكل 4 ـ 3:

تغير دور الحكم

	الخاص	العام	القطاع الثالث
فوق القومي	شركات عبر الأمم	منظمات ما بين الحكومات	منظمات غير حكومية
القومي	شركات قومية	نموذج القرن العشرين	قومية لا تسعى للربح
تحت القومي	شركات محلية	حكومة دولة محلية	مجموعات محلية

العوامل غير الحكومية: عامة وخاصة

لقد انطلقت أيضاً في القطاع الخاص مبادرات حكم في ما بين القارات تعالج البيئة. إلىٰ جانب الأمثلة المقدَّمة أعلاه، تقوم مجموعات كمجلس الأعمال العالمي للتنمية المتوازنة وغرفة التجارة العالميَّة بأنشطة في كل القارات تراوح من التثقيف والضغط إلىٰ تشريعات المقاييس الطوعية وقواعد السلوك. وقامت شركات فردية ذات نشاط متعدد الجنسيات بوضع المبادئ والاعتبارات البيئيَّة في إجراءاتها العملية القياسيَّة. ويتم تجانس هذه الإجراءات عبر مناطق العمليات من خلال نقل المقاييس البيئيَّة العالية من بعض أجزاء العالم وزرعها في أماكن أُخرىٰ حيث تخلف العمل الحكومي في البيئة.

من بين مجموعات العوامل الثلاثة الممثلة في جدول ناي Nye للحكم، تعتبر المجموعة التي حققت أكبر تغيير في البيئة هي بالتأكيد «القطاع الثالث» من المنظَّمات غير الحكومية. لقد وُجدت هذه المنظَّمات قبل قرن مضى أَو أكثر. لكنها في العقود الأخيرة فقط، وبشكل خاص منذ النجاح الكبير الذي حقَّقته المنظمات غير الحكومية في تشكيل مؤتمر ريو للبيئة والتنمية في سنة 1992، حيث ازدهر عدد أعضائها. لكن من الصعب أن نجد العدد الصحيح للمنظَّمات العالميَّة غير الحكومية التي تتعامل حصراً أَو بشكل أولي مع قضايا البيئة. لكن الكثيرين يفعلون. وكلمة كثير تعني الكثير فعلاً. أكثر من 25000 منظمة عالميَّة غير حكومية مسجلة في اتحاد المنظَّمات العالميَّة؛ 20000 منها لم تكن موجودة قبل عقد مضى[44]. ومن بين الـ 25000 منظمة يعمل ألف علىٰ الأقل علىٰ نطاق عبر القارات أَو نطاق عالمي. إن مجتمع المنظَّمات أظهر قدرة كبيرة في استخدام تقنيات المعلومات التي تظهر، كما أظهر سرعة الوقوف علىٰ قدميه في جمع ائتلافات سريعة لمواجهة القضايا. وكانت المنظَّمات قادرة علىٰ إعاقة المبادرات العالميَّة كما حدث في اجتماعات «منظمة التجارة العالميَّة» في سياتل، لكنها أيضاً كانت قادرة علىٰ جمع الأشياء ووضعها في الأجندات

العالميَّة كما حدث في مؤتمر ريو. وما يبقى ليرىٰ إن كانت تستطيع تنفيذ الأجندات التي ساعدت في بنائها. فالخبرة الحديثة في أعقاب مؤتمر الأُمم المتَّحدة للبيئة (ريو) والمؤتمر السكاني (القاهرة) تظهر أن الأمر أكثر صعوبة مما يقدر عموماً، مع دول لا ترغب بتنفيذ كامل الأجندة التي أعدتها لهم منظمَّات عالميَّة غير حكوميَّة.

شبكات التأييد وائتلاف الخطاب

وأخيراً لعل الصفة الفريدة والأهم في التطور الأخير للحكم البيئي هي بروز شبكات عاملة قد تقطع عبر أقسام جدول ناي Nye التقليدي. وإننا نجد بصورة متزايدة أن «العمل» في قضايا تنمية البيئة يتوقف علىٰ ائتلاف العوامل موحدة بتأييدها لبرامج معينة ولا يعيقها شيء ضمن قطاعاتها أَو حتى علىٰ مستويات الحكم. لقد لاحظت كاثرين سكينك Kathryn Skkink ومارغريت إي كيك Margaret E. Keck هذا علىٰ أَنَّه اتجاه عام في الحكم في ما بين الأمم. لكن يبدو أن هذا أقوىٰ خصوصاً في الحقل البيئي[45]. ويكاد لا يكون لدينا أسماء لهذه «الإئتلافات المؤيدة»، وبدأ المثقفون باستكشاف أنشطتها وفعاليتها في المجال العالمي. لكن القليل الذي نعرفه يقترح أنَّها تشتمل علىٰ شبكات تتقاطع ليس مع العاملين فقط بل ومع المقاييس أيضاً. والنتيجة شبكات عالميَّة من المعرفة والممارسة متصلة بائتلاف الأعمال المحلية المضاعفة التي تتناغم بشكل إفرادي مع السياسة وعلم البيئة في أماكن معينة. لقد سمىٰ روني ليبشوتز Ronnie Lipschutz بُنى الحكم هذه «المجتمع المدني العالمي»، ويراها في قلب أي فرصة جادة للتعامل مع قضايا البيئة العالميَّة[46]. إن الاتجاهات المعاصِرة في مناطق المشاكل مختلفة بقدر اختلاف تموين المستعمرات المدنية وزيادة إنتاجية الزراعة في المناطق الريفيَّة، تحمل في طياتها وجهة النظر هذه[47]. كيف وهل يمكن لمثل هذه المقاييس المتعددة والعوامل الكثيرة في بُنى الحكم أن تكون في مفاهيمنا وتصوراتنا التي تظهر عن العالميَّة والعولمة، يبدو أن هذا سؤال ثقيل وملائم لننهي عنده هذا القسم.

ماذا إذن؟

يثبت المسح الأولي الملاحظة العادية أن البيئة اليوم تلعب دوراً هاماً وحاسماً في الأبعاد البيئيَّة عبر القارات. وإلىٰ أي مدىٰ كانت قوة هذا الدور بالنسبة للبعض، اقترحه الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان Kofi Annan في تقرير الألفية الثانية أمام الجمعية العامة الذي وصف فيه الأجندة العالميَّة علىٰ تأمين «الخلاص من العوز، والخلاص من الخوف، وحرية الأجيال القادمة في المحافظة علىٰ عيشهم علىٰ هذا الكوكب»[48]. إذا اخترنا أن نضع الشرط المؤهل «للعالميَّة البيئيَّة» وجود شبكة غنية من الروابط البيئيَّة تتوسط الروابط بين العاملين علىٰ بعد عبر القارات، فعندئذ تكون العالميَّة البيئيَّة صفة بارزة للمجتمع الحديث لا غموض فيها.

إضافة إلىٰ ذلك، إن العولمة البيئيَّة ـ وينظر إليها علىٰ أنَّها الكثافة في العالميَّة البيئيَّة ـ آتية لا ريب. ويمكن تطبيق الملاحظات التالية حول معيار «الكثافة» لديڤيد هيلد David Held المذكور في بداية هذا الفصل[49].

- لقد حلَّقت أعداد وأنواع العوامل الداخلة في الشؤون البيئيَّة عبر القارات سيما منذ مؤتمر الأُمم المتَّحدة حول البيئة والتنمية في سنة 1992 الذي كان علامة فارقة. وهذا صحيح ليس بالنسبة للمنظَّمات الحكومية علىٰ كل المستويات فقط، بل وبالنسبة لمجموعات القطاع الخاص أيضاً والمنظَّمات غير الحكومية «القطاع الثالث»، وأعداد متزايدة من ائتلافات التأييد تقطع كل مقاييس الحكم التقليدي ومجموعات العوامل.
- مدىٰ الروابط البيئيَّة عبر القارات ـ تنوّعها، قوّتها، وكثافتها ـ تبدو أنَّها أيضاً في ارتفاع. فإن قيست بغنى معرفتنا حول البيئة العالميَّة، أَو بعدد المعاهدات البيئيَّة، أَو بمقدار المساعدات المشروطة بالبيئة أَو الاستثمار، وصول «الأخبار» البيئيَّة أَو «السبق الإعلامي» الذي تحمله المناقشات البيئيَّة في الشؤون العالميَّة، من المستحيل أن نتصوَّر أن العقد الماضي لم يشهد «كثافة» في العولمة بالمقارنة مع العقود السابقة.

- وفي ما إذا حصلت زيادة في «سرعة» تغير المجتمع المرتبطة بأبعاد أُخرىٰ من العولمة البيئيَّة هي أكثر إشكالية. وهذا سؤال مشوش فكرياً وهو سؤال صعب تجريبياً. إن ما هو صحيح بالتأكيد أن نسبة تغير أنواع كثيرة من المادة البيئيَّة العالميَّة وعوامل البيئة الجديدة في مرحلة ما بين القارات تتسارع باستمرار، وأن أوائل التسعينيَّات شهدت نمواً سريعاً، غير مسبوق، في بناء المؤسسات التي تتعامل مع الحكم البيئي عبر القارات. وإن كان هذا الانفجار غير العادي في التغير الاجتماعي يستطيع (أو يجب) أن يعيش في القرن الحادي والعشرين، يبقى لنرىٰ!

لكن ما دامت حقيقة العولمة البيئيَّة قد تأكَّدت، فيبقى السؤال إن كانت هذه الحقيقة مهمَّة، وما هي أهميتها؟ فلو عاملنا، علىٰ سبيل المثال، «العالميَّة» علىٰ أنَّها حالة اعتماد متبادل معقَّد وبعيد، ومع الحاجة بأن الروابط متعددة القارات بين العوامل «تبادلية ومكلفة»، فعندئذ ليس من الواضح أبداً وجود «عالميَّة بيئيَّة»[50]. وكمثال علىٰ الصعوبة الكامنة، يحتاج المرء فقط أن يفكر في طفل الإعلان للبيئيين ذي التوجه العالمي: ففي العقد الماضي وأكثر، ظهرت هذه القضية بشكل بارز في المناقشات البيئيَّة التي بدأتها العوامل الرئيسيَّة في دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية OECD وأقاربهم. (إن هذه الصياغة تقلِّل من دور الكونغرس في الولايات المتحدة كعامل أقل من رئيسي في الشؤون العالميَّة للبيئة، وأعترف بهذا، لكن هذا الأمر قضية أُخرىٰ). ولكن تظهر أعمال المسح الحديثة للأولويات البيئية حول العالم بوضوح أن الهموم الإنسانية المكلفة تبقى قضايا محلية: كتلوث المياه، والتلوث المدني، وقطع الغابات، وتآكل التربة[51]. أما تغير المناخ ونفاد الأوزون وإنقاذ الحيتان لا تظهر واضحة في آراء هذه العوامل عن العالم. فيشارك ممثلوهم في مفاوضات المناخ العالميَّة والائتلافات وما شابه، ليس لأنهم يدركون أن الحركة العالميَّة للمادة البيئيَّة مكلفة لهم علىٰ الخصوص، وأقل من ذلك لأن لديهم فرصة فرض تكاليف تبادلية علىٰ أولئك المسؤولين عن إصدار المادة في المكان الأول. بل إنَّهم

يشاركون جزئياً في جهد إعادة هيكلة الخطاب العالمي حتى يتم تمثيل مصالحهم واهتماماتهم تمثيلاً أفضل. وهم يسعون لزيادة الاحتمال بأن أي جهود تطلب منهم بالنيابة عن اهتمامات أناس آخرين من أجل المناخ العالمي، فقد يصبحون مرتبطين بالتزامات عبر القارات ليساعدوا في معالجة مشاكلهم المكلفة (المحلية). هذا الحساب قد لا يناسب مفهومنا التحليلي للعولمة البيئيَّة. ولكن يمكن أن يكون الحساب الذي تستخدمه العوامل الكثيرة في العالم لوضع استراتيجيَّة حول ارتباطهم بالشؤون العالميَّة.

إن تخميني الخاص هو أن ما سميته بُعد «المادة البيئيَّة» في العولمة ـ انتقال ثاني أكسيد الفحم مسافة بعيدة، والأمراض الغريبة والمواد الكيميائية السامَّة ـ لن تكون أكثر الطرق أهمية في بروز البيئة في العلاقات بين العوامل علىٰ مسافات عبر القارات في العقد المقبل. فبدلاً من ذلك، أتوقع أن بُعد «الأَفكار البيئيَّة» هو أكثر ما يؤثِّر في الشؤون العالميَّة سيما عولمة الأَفكار المتعلقة بالتنمية المتوازنة.

مهما فكَّر المرء بعبارة خاصة، فإن الأَفكار حول التوازن قد وجدت أبعاد العلاقات الإنسانية البيئيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة أكثر مما فرقتها. فقد أحاطت، في وقت أبكر وبصورة أكثر كمالاً من معظم المفاهيم، بالأهمية الفائقة لكثافة شبكات الاتصالات ـ للتفاعلات بين الأنشطة الإنسانية المتعددة والنتائج البيئيَّة ـ في وضع المشكلات والفرص أمامنا. أخيراً، لقد أكّدت أيضاً علىٰ أهمية المؤسَّسات المحلية أَو الإقليمية، والتحرّك والمبادرات في معالجة التفاعلات المعقدة بين هذه الأبعاد المتعددة لسعي الإنسان. لكن، في الوقت نفسه، لقد قبلت ـ وبالفعل ضمت ـ الدور الرئيسي الذي لعبته علىٰ نطاق عالمي شبكات المعرفة والتأييد لتقديم أجندات محلية.

إلىٰ المدىٰ الذي رسمت به الفكرة المذكورة أعلاه صحيحة بشكل جزئي، فإن «العمل» الحقيقي في الحكم البيئي علىٰ مدىٰ بضعة عقود مقبلة قد

يحدث في مجال إقليمي أكثر من حدوثه في مجال عالمي، أَو قومي. فالبحث العلمي يقترح أَنَّه علىٰ النطاق الإقليمي سوف تتحد ضغوط بيئيَّة متعددة لتشكِّل «وجوهاً» متميزة أَو «أعراضاً» لتغير عالمي. وتعرض الخبرات السياسيَّة بصورة متزايدة أَنَّه علىٰ النطاق تحت القومي يتحرَّك المجتمع بطاقته العظمى وبفعالية ليؤكِّد الأجوبة الديمقراطية عن كيفية توازن التطورات والبيئة لشعب معين ومجموعات معينة. لو ظهرت مثل هذه الأَفكار ذات الأُسس المحلية لكنها محضونة عالمياً بين أهم أبعاد العولمة في العقود المقبلة، فإن تفكيرنا حول طبيعة العولمة وآثارها في الحكم سوف يسلك طريقاً ـ وإن كان مثيراً ـ طويلاً لمواكبة الأحداث.

ملاحظات

(1) ديفيد هيلد وآخرون David Held، «Global Transformation: Politics, Economics and Culture,» (Stanford University Press, 1999) ص 21 ـ 22.

(2) لكني لا أعالج العالميَّة كنسخة من المسافة الطويلة الموجودة لدى كيوهين وناي «Complex Interdependence» لأن ذلك يحدد بالتعريف العولمة بشبكات من الروابط البعيدة التي تكون «مكلفة بشكل متبادل». راجع روبرت أو. كيوهين Robert O. Keohane وجوزيف إس ناي Joseph S. Nye، «Power and Independence» الطبعة الثانية (Scott, Fores man and Co. 1989). وكما سأبيِّن في ما بعد في عالم جماعي مشكوك به ومعقَّد من الشؤون البيئية المعاصرة، إن السؤال «كم هي مكلفة لمن؟» هو دائماً في قلب النقاش السياسي. فعلىٰ سبيل المثال ما يتبين في النهاية، أنه مكلف بالنسبة لجميع العوامل سوف يكون في البداية مكلفاً بالنسبة للقليل منهم فقط. وكما اقترحت قضية نفاد أوزون الستراتوسفير في السبعينيَّات، فإن بعض أهم حركات العولمة سوف تكون في رفع مثل هذه القضايا إلىٰ الأجندة العالميَّة. والعكس صحيح أيضاً ـ القضايا التي أكَّد العامل البشري أنها «مكلفة» ستظهر في ما بعد علىٰ أنها كذلك ـ فكِّر بالهمّ العالمي في «الشتاء النووي» في منتصف الثمانينيات. وبشكل مماثل، حتى القضايا التي يعتقد أنها مكلفة لدىٰ البعض سوف لا تظهر أنها كذلك بالنسبة للآخرين، كما في المناقشات المعاصرة حول تغير المناخ. إن العمليات التي يفحص بها فهم التكلفة قد تظهر علىٰ أنها أكثر تعليماً بالفهم «للعالميَّة» و«العولمة» البيئية من «حقيقة» التكلفة نفسها.

إن الأسئلة عن كيفية تمكن العوامل التي لا تملك وسائل قوة تقليدية من أن تكسب ارتفاعاً (تبادلياً) لتقاوم الضغوط البيئية التي يفرضها الآخرون، وهذا ما تكون عليه

السياسة البيئية إلىٰ حد كبير. يتألّف الكثير من العمل في العولمة البيئية من أولئك الذين علىٰ الطرف الآخر من التلوث يحاولون إيجاد طُرق لعرض أو فرض أو التهديد بتكاليف تبادلية مع المنتجين. فقد كان هذا، مثلاً، جوهر المناقشات الأوروبية حول المطر الحامضي عبر الحدود في السبعينيّات والثمانينيّات. وعلىٰ العموم، إذا قدمت المخالفات الضخمة في المصادر بين العوامل المعتبرة علىٰ نطاق عالمي، فإن مثل هذه الجهود لفرض تكاليف تبادلية تفشل في الفترات الواسعة. وعندما تنجح، فإنّها غالباً ما تفرض من خلال بُعد العالميّة غير البيئة ـ مثلاً التجارة ـ ومن ثم لا تظهر إذا حدد تحليل الروابط البيئية بتلك التي تكون تبادلية بذاتها أو من ذاتها.

للأسباب المذكورة قرّرت أن تحديد الاستكشاف الأولي للعولمة البيئية بتلك العلاقات التي هي «مكلفة وتبادلية» بدون تناقض لن يكون هذا التحديد مفيداً، ولكن ربما خدم في العمل الأولي لكيوهين وناي في الاعتماد المتبادل المعقد. وما إذا كان فهمنا الأوسع للعولمة يمكن أن يخدمه إطار فكري محدد بالنسخة البعيدة المدىٰ للاعتماد المتبادل المعقد «المكلف والتبادلي»؛ يبقى سؤالاً مفتوحاً.

(3) المجلس القومي للأبحاث (NRC) لجنة بحث التغير العالمي، «Global Environ meutal Change: Research Path ways for the Next Decade» (National Academy Press, 1999)، فصل 3.

(4) نفس المرجع، ص 141 ـ 47.

(5) نفس المرجع ص 151.

(6) هذه الفقرة تستفيد من ك. كرومر، «International Management of Hazardous» Wastes: The Basel Convention and Related Legal Rules», (Clavendon Press, 1995); Jonathan Krueger, «What's to Become of Trade in Hazardous Wastes? The Basel Convention One Decade Later,» Environment, vol. 41 no. 9 (1999)؛ ص 11 ـ 21.
وليام كلارك William Clark، «Learning to Manage Hazardous Materials,» Environment, vol. 41, no. 9 (1999)، ص i.

(7) إن أهمية الانتقال البعيد لأوزون التروبوسفير أصبحت مؤخراً فقط موضع تقدير واسع. راجع مثلاً دانيل ج جاكوب وجينفر آ. لوغان، وباشاني ب مورتي، «Effect of Rising Asian Emission on Surface Ozone in the United States», Geophysical Research Letters, vol. 26 (1999) ص 2175 ـ 78.

(8) برنامج الأُمم المتّحدة حول البيئة (UNEP)
Report of the Second Session of the Criteria Expert Group for Persistent Organic Pollutants, UNEP/ POPS/ INC/ CEG/ 2/ 3 (Vienna 1999حزيران).

(9) روبرت و. كيتس وآخرون Robert W. Kates، «The Great Transformation,» وفي ب. ل. تيرنر B. L. Turner، «The Earth as Transformed by Human Action,» (Cambridge University Press, 1990) فصل 1.

(10) وليام سي كلارك وآخرون William C. Clark، «Acid Rain, Ozone Depletion and climate

change: An Historical Overview,» in Social Learning Group, Learning to manage Global Environmental Risks (MIT Press, 2001)، فصل 2.

(11) مجلس البحث القومي، بول ج كرنزون وتوماس ي غرايدل في كتاب من إعداد وليام سي كلارك وآر. إي مان، «The Role of Atmospheric Chemistry in Environmental-Development of the Biosphere», (Cambridge University Press, 1986) ص 213 ـ 15.

وبيتر فيتوسيك وآخرون «Human Alteration of the Global Nitrogen Cycle: Causes and Consequences,» إصدارات من مجلة Ecology المجلد 1 (1997) [14 كانون الثاني 2000] (http://esa.sdsc.edu/issues.htm).

يمكن أن يحدث تأثير العولمة الإضافي من خلال إصدار المواد كالميثان الذي يلغي التركيز الكيميائي في الغلاف الجوي كالهيدروكسل الجذري (OH) الذي يخدم بشكل طبيعي «كمنظف» يتفاعل مع مواد كيميائية أخرىٰ ليجعلها قابلة للانحلال بالماء أو أكثر احتمالاً للإزالة من الغلاف الجوي.

(12) روبرت كيتس ووليام كلارك، Robert Kates, William Clark، «Expecting the Unexpected»، في مجلة Environment مجلد 38 ـ رقم 2 (1996) ص 6 ـ 1 وص 28 ـ 34.

(13) سكوت فايدنسيول Scott Weiden saul، «Living on the Wind: Across the Hemisphere with Migratory Birds» (North Point Press, 1999)؛ دوغلاس ستوتز وآخرون، Doglas Stotz، «Neotropical Birds: Ecology and Conservation» (University of Chicago Press, 1996).

يقول فايدنسيول إن 25٪ أو نحو ذلك من طيور أمريكا الشمالية تقضي الموسم الذي لا تتكاثر فيه في المنطقة المدارية، وبشكل أولي في أمريكا الوسطى. لاحظ أن إمكانية الهجرات الأطول التي يمكن أن تأتي بالطيور جنوباً حتى حوض الأمازون كانت نادرة.

(14) وليام ماكينل William McNeille «Plagues and Peoples» (Doubleday, 1976)، الفريد كروسبي Alfred Crosby، «Ecological Imperialism: The Biological Expansion of Europe 900-1900» (Cambridge University Press, 1986)، جارد Jared، «Guns, Germs and Steel: The Fates of Human Societies» (Norton, 1997).

(15) م. Madrono، مجلد 41 (1994) ص 161.

(16) بيتر «Human Domination of the Earth's Ecosystems,» ص 494 ـ 99 وخاصة 498 مجلد 277 (1997) مجلة science.

(17) ريتشارد ن ماك وآخرون «Biotic Invasions: Causes, Epidemiology, Global Consequences and Control,» Issues in Ecology, no. 5 (2000) (http://esa.sdsc.edu/issue5.htm 14) كانون الثاني 2000).

آ. دريك وهـ. آ. موني إعداد A. Drake, H. A. Mooney Biological Invasions, A Global Perspective (Wiley, 1986).

وڤ. هـ. هيـوود V. H. Heywood إعـداد: Global Biodiversity Assessment (Cambridge University Press 1995).

(18) فيتوسيك وآخرون «Vitousek «Human Domination، ص 498.

(19) علىٰ سبيل المثال، (ICRW) الاجتماعات العالميَّة لتنظيم صيد الحيتان، واشنطن (1946). و(ICCAT) الاجتماعات العالميَّة للحفاظ علىٰ سمك تونة الأطلسي (ريو دي جانيرو 1966).

(20) انظر مثلاً الاجتماعات للحفاظ علىٰ المهاجرة من الحيوانات الوحشية (Bonn-CMS، 1979) وعلىٰ الأراضي الرطبة ذات الأهمية العالميَّة (Ramsat 1971).

(21) سكـوت ل. روبـنسـون، Scott K. Robinson، «The Case of the Missing Songbirds» في مـجلـة Consequences المـجلـد 3 (1997)، (14 كـانـون ثـاني 2000) (http://www.org/ Consequences/ Vol 3 no. 1/ toc. htm/

بـرايـان آ. مـورار ومـارك أنـدريـه ڤـيـلارد، Brian A. Maurer, Marc-Andre Villard، «Continental Scales Ecology and Neotropical Migratory Birds: How to Detect Declines amid, the Noise», مجلة Ecology مجلد 77 (1996) ص 1 ـ 2.

(22) هيوود Heywood، «Global Biodiversity Assessment».

(23) إيڤـيـل كـورهـام، «Lakes under a Three-Pronged Attack,» مـجـلـة Nature ـ مـجـلـد 381 (1996) ص 109 ـ 110؛

ن ـ د. يـان وآخـرون، N. D. Yan، «Increased UV-B Peneration in a Lake owing to Drought-Induced Acid fication» مجلة Nature ـ مجلد 381 (1966) ص 141 ـ 143.

(24) مـجلـس الأبـحاث القـومي NRC مـجلـس التـنـمية المـتـوازنة Our Common Journey; A Transition toward Sustainability (National Academy Press, 1999) ص 8.

(25) ريـتـشـارد بـيـنـيـديـك Richard Benedik، «Ozone Diplomacy», (Harvard University Press, 1991) ص 4.

(26) «World in Transition: The Research German Advisory Council on Challenge» Global Change (ربيع 1997).

(27) لـينـتون ك. كـالـدويـل Lynton K. Caldwell، «International Environmental Policy: From the Twentieth to the Twenty-First Century» (Duke University Press, 1996) طبعة 3.

(28) ميراندا آ. شرويرز وآخرون Miranda A. Schrears «Issue Attention, Framing and Actors: An Analysis of Paytterns Across Arenas,» in Social Learning Group», «Learning to Manage Global Environmental Risks», MIT Press, 2001 فصل 14.

(29) ريتشارد ن. كوبر Richard N. Cooper، «International Cooperation in Public Health as a Prologue to Macroeconomic Cooperation», in Can Nations Agree? Issues in International Economic Cooperation (Brookings, 1989).

(30) ماري دوغلاس وآرون ويلدافسكي Mary Douglas, Aaron Wildavsky، «Risk and Culture: An Essay on the Selection of Technical and Environmental Dangers», (University of California Press, 1982).

(31) يستعير التقرير من وليام آدامز (William Adams) «Green Development», (Routledge, 1992).
مواضيع مماثلة من منظور اقتصادي سياسي معاصر، هي مركزية لدى كيث بيزولي (Keith Pezzoli) «Human Settements and Planning for Ecological Sustainability: The Case of Mexico City» (MIT Press, 1998).

(32) الهيئة العالميَّة للبيئة والتنمية (WCED) «Our Common Future» (Oxford University Press, 1987) ص 1.

(33) المجلس القومي للأبحاث «Our Common Journey».

(34) انظر مثلاً بيزولي (Pezzoli) «Human Settlements...» وروني لبشوتز (Ronnie Lipschutz) «Global Civil Society and Global Environmental Governance» [SUNY Press, 1996].
وسوبارب بازوفغ (Suparb Pas-ong) ولويس ليبل (Louis Lbel)، «Implications of Political Transformation in Southeast Asia for Environmental Governance,» في مجلة Environment (سيصدر).

(35) بالدلالة، إن أحدث تقرير عن أكاديمية العلوم القومية في الولايات المتحدة، على تغير البيئة العالميَّة صيغ بأفكار التنمية المستمرة (انظر الملاحظة 31). برنامج الأُمم المتّحدة للبيئة (نظرة على البيئة العالميَّة جديدة) 2000-«New Global Environmental Outlook»، تقرير حالة تطور الإنسان والبيئة وليس كل منهما. «Global» -(Earthsan, 1999) Environmental Outlook-2000) (UNEP).

(36) أركِّز على الحكم بدلاً من المؤسَّسات حتى أبقي على الإطار التصوري المركز على العلاقات بين العاملين. تعمل المنظَّمات المرتبطة في أعمال البيئة العالميَّة كقوى للتغيير، أي كعاملين. والمبادئ المشتركة بين العاملين ـ وهذا عنصر آخر من مفاهيم المؤسَّسات الكثيرة ـ تعالج في القسم السابق للأفكار. واستخدامي للحكم يعني اهتماماً مباشراً إلى العلاقات أَو الروابط التي من خلالها يعيق أحد العوامل أَو الدوافع أعمال الآخرين. انظر أيضاً بازونغ Pas-ong وليبل Lebel، «Implications of Political Transformation».

(37) انظر الوصف على الموقع (Chemical Manufacturers' Association) 14 كانون الثاني/ 2000 (http://www.camhq.com).

(38) على سبيل المثال: لينارت ج لوندڤيست (Lennart J. Lundvist)
«The Hare and the Tortoise: Clean Air Policies in the United States and Sweden» (University of Michigan Press, 1980).
ورونالد بريكمان (Ronald Brickman) وآخرون:
«Controlling Chemicals: The Politics of Regulation in Europe and the United States» (Corell University Press, 1985);
وديڤيد ڤوكل (David Vogel):
«National Styles of Regulation: Environmental Policy in Great Britain and the United States» (Cornell University Press, 1986).
وسونيا بوهمير كريستنسن وجيماسكي (Sonia Boehmer-Christainsen) و(Jima Skea):

«Acid Politics: Environmental and Energy Politics In Britain and Germany» (Behaven Press, 1991).

(39) انظر هيلغ أو. بيرجيسون (Helge O. Bergesson) وجورج بارمان (George Parmann):
«Green Globe Year Book of International Co-operation on Envronment and Development». (Oxford University Press, 1997).
والسنوات الأخرىٰ لوصف المعاهدات وتقرير عن أوضاعها.

(40) انظر أوران ر. يونغ (Oran R. Young) معد:
«The Effectiveness of International Environmental Regimes: Causal Comections and Behavioral Mechanisms» (MIT Press, 1999).
وديڤيد فيكتور (Dvaid Victor) وآخرون، إعداد:
«The Implication and Effectiveness of International Environmental Commitments: Theory and Practice», (MIT Press, 1998);
وأيضاً روبرت أو كيوهين ومارك آليڤي (Mark Levy و Robert O. Keohane) إعداد:
«Institutions for Cambridge Aid» (MIT Press, 1996).
وبيتر إم هاس (Peter M. Haas) وآخرون إعداد:
«Institutions for the Earth: Sources of Effective Environmental Protection» (MIT Press, 1993).

(41) وندي فرانز (Wendy Franz) «الملحق Appendix» في كتاب كيوهين وليڤي:
«Institutions for Environmental Aid».

(42) انظر كالدويك (Caldwell): «International Environmental Policy».

(43) انظر الملاحظة رقم 40.

(44) الموقع http://www.uia.org/ 14 كانون الثاني 2000.

(45) مارغريت ل. كيك (Margaret Keck) وكاثرين سكينك (Kathryn Sikkink):
«Activists beyond Borders: Advocacy Networks in International Politics» (Cornell University Press, 1998).

(46) ليبشوتز (Lipschutz): «Global Civil Society».

(47) بيزولي (Pezzoli): «Human Settlements».
وكارين ليتفن (Karen Litfen):
«The Greetings of Sovereignt in World Politics» (MIT Press, 1998).

(48) كوفي أنان (Kofi Annan)، الأمين العام للأمم المتحدة، بيان إلىٰ الهيئة العامة عند تقديمه تقرير الألفية: «We the people: The Role of the United Nations in the 21st Century,», 3 April 2000.
وثائق الأمم المتّحدة: SG/SM/7343, GA/9705 (April 3, 2000).

(49) هيلد، Held: «Global Transformations».

(50) انظر الملاحظة رقم 2.

(51) UNEP: «Global Environmental Outlook-2000».

5

نيل م. روزندورف
Neal M. Rosendorf

العولمة الاجتماعيَّة والثقافيَّة: المفاهيم والتاريخ ودور أمريكا

إن العولمة الاجتماعيَّة والثقافيَّة أكثر أبعاد هذه الظاهرة اتساعاً وبُعداً، إذا نحن حدَّدنا فهمنا للعولمة بالخبرة الإنسانية. إنَّها متشابكة تشابكاً عميقاً مع الأبعاد الأُخرىٰ التي حدَّدها كيوهين Keohane وناي Nye في الفصل الأول من هذا الكتاب. وكما يقول المنظّر الثقافي جون تومِلنسن John Tomlinson: «إن عمليات التحول الضخمة في زماننا والتي تصفها العولمة لا يمكن فهمها فهماً صحيحاً حتى يتم إدراكها من خلال مفردات متعلِّقة بالمفاهيم الثقافيَّة. وكذلك... تغير هذه التحولات خيوط الخبرة الثقافيَّة ذاتها وتؤثِّر بالفعل في إحساسنا بما هي الثقافة حقاً في عالمنا الحديث»[1].

تستتبع العولمة العسكريَّة انتقال الناس والبُنى الاجتماعيَّة / السياسيَّة غالباً، وبصورة مؤقتة غالباً، أَو إلىٰ أجل طويل أحياناً، أَو دائمة ـ قارِن بروما الاستعمارية مثلاً، والمدن والبلدات التي أسَّستها، أَو بالاتساع الشاسع من بريطانيا إلىٰ شمال أفريقيا والشرق الأوسط وآسيا الوسطى. ويصح الشيء ذاته علىٰ التوسع الاستعماري العسكري والعالمي الذي سبق روما ـ إسكندر

اليونان، والخلافة الأموية الإسلاميَّة، وإسبانيا، وبريطانيا، وفرنسا. وفي الواقع حتى التهديد بالفناء النووي خلال الحرب الباردة، التي لم تكن تحتاج إلىٰ نقل الجيوش، كان له تأثير ثقافي هام في حركة العولمة، فقد اشترك الناس اليائسون من جميع أنحاء العالم بالقلق من احتمال القضاء عليهم بالضغط علىٰ بضعة أزرار[2].

يشبه البُعد الاقتصادي كثيراً انتقال القِيَم الاجتماعيَّة والبُنى الفكرية وذلك بانتقال الأموال والتجارة. فكِّر مثلاً بالرابطة التي رسمها ماكس ڤيبر Max Weber بين نظرة البروتستانت إلىٰ العالم ونظرة الرأسمالية في كتابه الشهير حول الموضوع[3]. والآن فكِّر بانتشار الرأسمالية العالميَّة المتزايد كنظام اقتصادي مسيطر في القرن الحادي والعشرين. كلما وسَّعت الرأسماليَّة انتشارها، تسعىٰ بعض القوىٰ الاجتماعيَّة والسياسيَّة والفكرية التي تكمن وراءها لتسلك طريقها ، مثال ذلك، حكم القانون، وتقدم الموهوبين وتبجح الذرائعية الفلسفية (مثال «السياسة فن الممكن») والبراغماتية، والوضع الاجتماعي والسياسي المتقدم لبرجوازية رجال الأعمال علىٰ حساب الطبقات الحاكمة التقليديَّة. فكِّر أيضاً بالتحدي السافر والكبير، والذي لم يعد منتشراً في النهاية، للأجندة السياسيَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة للرأسماليَّة، وهو الشيوعية. وبالفعل لقد وضع كل من آدم سميث Adam Smith وكارل ماركس Carl Marx نظاميهما علىٰ أنَّهما نهائيان وعالميان في مجاليهما.

وفي ما يتعلَّق بالعولمة البيئيَّة التي تكون نتاجاً إنسانياً بمقابلتها بالقوىٰ الطبيعيَّة (إلاَّ إذا اعتبر المرء الناس بكل بساطة أحد وجوه العالم الطبيعي)، الأوبئة بشكلها الواسع نتيجة للسفر والهجرة البعيدين، يكفينا هذا المثال. ونذكر مثلاً آخر عن التسخين الأرضي الذي يعزىٰ جزء هام منه إلىٰ سعي جنسنا المنتج والمستهلك بدون اهتمام، من الموقد في البناء إلىٰ المعامل وإلىٰ الطرقات السريعة التي تعيق حركة المرور فيها مركبات للاستخدام الرياضي.

لقد عُولج كثير من هذه الأبعاد المترابطة بشكل منفصل في فصول أُخرىٰ من هذا الكتاب. ولكن حتى بدونها، لا تزال العولمة الاجتماعيَّة والثقافيَّة تترك الكثير للتأمّل: المعلومات، الفن والتسلية، الدين والفلسفة، تنظيم المجتمعات والطبقات، واللغة، والسياسة، والهجرة ونكتفي بتسمية النواحي الرئيسيَّة فقط.

إن محاولة معالجة كل من هذه العناصر في العولمة الاجتماعيَّة والثقافيَّة بدوره، ولو معالجة فضوليَّة، قد تنتج فصلاً يحتل معظم هذا الكتاب. لذا فمن أجل أن أكون عملياً أبدأ برسم مسار عام تاريخي وفكري لهذا البُعد. يفحص ميزان هذا الفصل العامل الوحيد والأهم والذي يؤثِّر في العولمة الاجتماعيَّة والثقافيَّة في العصر الحاضر والمستقبل القريب: ألا وهو القوة الثقافيَّة العالميَّة للولايات المتحدة.

ليست الثقافة الأمريكية بشكل من الأشكال الوحيدة ذات الحضور العالمي في عالمنا المعاصر. يلاحظ العالم الاجتماعي يوغيش آتال Ogesh Atal مثلاً، «أن ثقافة الهند ـ وهي بلدي ـ وصلت إلىٰ عدد من البلاد في العالم»[4]. فالفنون الهندية والموسيقى والأفلام والمطبخ وحتى الدِّين (في البداية مع إطلاق الهندوس لدين هاري كريشنا Hare Krishna) لقد وجدت جماهير وكانت موضوعاً لإعادة تفسيرها محلياً (أشهر مثال تهجين فرقة البيتلز بمايسترو السيتار ـ وهي آلة موسيقيَّة هنديَّة ـ راڤي شانكر Ravi Shankar) في جميع أنحاء العالم. ولكن الولايات المتحدة ـ شئنا أم أبينا ـ هي من يحدِّد الخطى في كثير من البُنى الاجتماعيَّة والثقافيَّة العالميَّة، وذلك لأن الولايات المتحدة تمتلك قدرة لا تُضاهى علىٰ الوصول إلىٰ وسائل إنتاج ونشر أفكارها وطراز حياتها في جميع أنحاء العالم من جهة، ولأن الولايات المتحدة تمتلك مجموعة فريدة من الخصائص الثقافيَّة والتاريخية التي تمكِّن من ذلك النشر. هذا لا يعني أن العالم مدموغ بتجانس ثقافي، لكنه يعني أن الكثير الكثير من زوايا العالم يجب أن

يشار إلىٰ الثقافة الأمريكية علىٰ أساس نظامي كعنصر يوازي الثقافة المحلية.

العولمة الثقافيَّة ـ ما ينتج عنها وما لا ينتج

ماذا ينتج عن العولمة الاجتماعيَّة والثقافيَّة بالضبط؟ فرض سيطرة الأشكال الاجتماعيَّة والثقافيَّة والتكنولوجيات الجديدة علىٰ التابعين؟ أم تحويل ومزج يؤثِّر في كل المشاركين؟ هل النتيجة هي تجانس الثقافة؟ أم هل يحدث تفاوض بين المسيطر والتابع فتترك الثقافات المحلية متميزة إن هي تم تعديلها؟

إن الجواب القصير عن كل هذه الأسئلة هو «نعم». من الممتع أن أقل نوع من العولمة الاجتماعيَّة الثقافيَّة انتشاراً بشكل ثابت هو فرض السيطرة، ومع ذلك فإنَّه النوع الذي يثير الاهتمام الأكبر. فعبر العصور التاريخية المختلفة يستطيع المرء أن يجد أمثلة للقوة المسيطرة التي تفرض بالقوة ثقافتها علىٰ المجتمعات التي تستقبلها. علىٰ سبيل المثال، نشرت الإمبراطورية الرومانية الفن اليوناني الروماني والعمارة والقوانين وألعاب التسلية وشبكات الانتقال لتصل الجميع أفراداً وجماعات عبر قارات ثلاث. ومع ذلك فإن روما، وهي التي تحتوي علىٰ عنصر قوي من جميع الثقافات في قلبها (الممثَّل في خلط التراكينيان والدتروسكان والتأثير اليوناني لتولد دولة المدينة الرومانية) كانت هي ذاتها يجري عليها عمل ثقافي من ممتلكاتها الاستعمارية البعيدة. وأحد أهم هذه الظواهر هو التدفق الثقافي من المحيط إلىٰ المركز الذي حدث في مجال الدِّين. يستطيع المرء أن يرى في روما، المدينة الكبيرة، طوائف هامَّة تكرس نفسها إلىٰ ميثراث آسيا الوسطى، وأوزيريس مصر، ويهوه اليهودي إضافة إلىٰ بقايا بانثيون الآلهة اليونانية، (وكان يوجد عدد كبير ممن يخافون الإله من غير اليهود الذين وضعوا أنفسهم مع التجمعات اليهودية المرحِبة بهم)، والشكل الآخر لليهودية، عيسى المسيح المقدس. ومع ذلك، فمن أجل التنظيم الكلي للبنية المجتمعية والمادية والقانونية الذي حدث في الإمبراطورية (والملخص بالإعلان أن جميع الناس في الإمبراطورية هم مواطنون رومان خلال حكم كراكلا Caracalla في

أوائل القرن الثالث ميلادي) ولم تصبح الأقاليم المفردة كلها مجرد نسخ من روما. وحافظ معظمها على خصائصه المحلية والفريدة على الرغم من أن الحضور الروماني كان مؤثِّراً في تلوين هذه الخصائص[5].

هذه المجموعة المعقدة من التفاعلات الاجتماعيَّة والثقافيَّة التي تحدد المدى الأكبر أو الأقل للاستعمار الرسمي وغير الرسمي لإسبانيا وفرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة، وقد وصفها علماء الاجتماع مثل جان نيدرڤين بيتريس Jan Nederveen Pieterse بالتهجين Hybridization (لم يكن هذا اعتذاراً منه عن الاستعمار ـ فقد أكَّدت القوى الاستعمارية الرسمية تفوق ثقافاتها بقوة، وغالباً بوحشية). بينما يقبل بيتريس Pieterse فكرة «التزامن الثقافي» (وهي طريقة أُخرى للتعبير عن التجانس) ذات علاقة، فقد استنتج أنَّها «غير مكتملة أساساً». وهو يسأل: «كيف يمكن أن نتوصل إلى عبارات لظواهر مثل الملاكمة التايلندية تقوم بها فتيات مغربيات في هولندا، وموسيقى الراب الآسيوية في لندن، وحلويات الباجيل الإيرلندية والتاكو الصيني والماردي غراس الهندي في الولايات المتحدة»؟ وجواب بيتريس Pieterse أن «الخبرات الثقافيَّة، في الماضي والحاضر، لا تتحرك باتجاه وحدة ثقافيَّة وقياسيَّة»[6]. ويقول آرجون أبوراداي Arjun Appuradai بصراحة إن «العولمة ليست قضية تجانس ثقافي»[7].

يستعمل رولاند روبرتسن Roland Robertson عبارة «المدينة الواحدة Unicity» مقابل «التماثل Uniformity»، ليصف عالماً تناقش فيه المجتمعات منفردة وجودها وهويتها وأعمالها في سياق «مكان واحد»[8] مسيطر. واستخدم آخرون عبارة «العالميَّة المحلية glocalization» ليصفوا مفهوماً مماثلاً «يعتبر السياق المحلي والقومي والعالمي للعمليات التواصلية بين الثقافات»[9]. يعتقد يوغيش آتال Yogesh Atal أنَّه بينما كانت في الفترة الاستعمارية تفتح الأقاليم المعزولة بواسطة «فتحة واحدة» للقوة المسيطرة، فإن نهاية الاستعمار جلبت «فتحات متعددة» «لتصل هذه المجتمعات مع عدد من المجتمعات الأُخرى، متقدمة ونامية»[10].

فالثقافات القومية وتحت القومية في حالة مستمرة من التغير بدرجات متفاوتة وهي تتصل مع ثقافات أُخرىٰ. فالعربي المعاصر في الشرق الأدنى والشرق الأوسط هو مجموع، ليس الثقافات الفطرية وحسب، لكنَّه علىٰ درجات متفاوتة من الأثر الذي خلفته ثقافات اليونان والرومان القديمة والإمبراطوريات البيزنطية والساسانية الفارسية، وأوروبا العصور الوسطى، والآن الولايات المتحدة. وبالفعل إن التفوق العربي في العصور الوسطىٰ بالعلوم كعلم الفلك قائم علىٰ تركيب واع للتقاليد العلمية اليونانيَّة والفارسية والهنديَّة[11]. ومع ذلك لا يجادل أحد أن الإقليم قد توقف عن امتلاك مجموعة متميزة من الهويات الثقافيَّة تجعله ينفرد عن باقي أجزاء العالم.

منظور تاريخي

إن عبارة رولاند روبرتسن Roland Robertson «المكان الوحيد» ظلت تتردَّد منذ زمن طويل. لم تمنعنا حقيقة أن للإنسان رجلين فقط، ويتحرَّك نتيجة لذلك بمعدل بطيء نسبياً إذا قارناه مع معظم الحيوانات الثديية الكبيرة، من أن نكون بطل العدائين علىٰ الأَرض. فمنذ الزمن الذي ظهر فيه الإنسان العبقري قبل 1,7 مليون سنة بدأ يتجول. وفيما بين 20000 و13000 سنة خلت وصل الإنسان القديم نصف الكرة الأَرضية الغربي، مجتازاً العالم بصورة رائعة[12]. ولكن بينما يتزايد الدليل علىٰ وجود اتصالات متقطعة تالية بين نصفي الكرة الأَرضية الشرقي والغربي، بعيداً عن الغزوات الشمالية المتفق عليها، والتي يبدو أنَّها كانت محصورة تقريباً علىٰ شكل غزوات من الأول إلىٰ الثاني، فإن الشعوب القاطنة في نصف الكرة الأَرضية كان تعيش منعزلة عن بعضها بعضاً بصورة فعَّالة من حيث أي أثر ثقافي دائم حتى كريستوفر كولومبس Christopher Columbus وخلفائه خلال عصر الاستكشافات الأوروبية التي وصلت بشكل دائم العالم القديم والجديد معاً[13].

لذا عندما نتكلّم عن العولمة الثقافيَّة في الفترة السابقة علىٰ 1492، فإنَّنا

نشير إلىٰ الظواهر التي حدثت ضمن الحدود الواسعة لقارات النصف الشرقي للكرة الأَرضية، وباستخدام معيار «المسافة القارية المتعددة» للعولمة الذي وضعه كيوهين وناي في الفصل الأول، نستطيع أن نعرف ظواهر العولمة «الرقيقة» كإمبراطورية الإسكندر الكبير التي جلبت معها الثقافة الهلينية التي في الوقت نفسه فتحت للمفكرين اليونان رؤية العالم الموحد سياسياً وثقافياً، والتي من الممكن أنَّها لم تكن في السابق عملية كما لم تكن مقبولة»[14]؛ والإمبراطورية الرومانية وخليفتها البيزنطية[15]؛ والخلافة الأموية التي نشرت الإسلام من إسبانيا إلىٰ القاهرة إلىٰ الهند وما وراءها؛ وطرق التجارة في آسيا الغربية (حوض تاريم وواحة طرفان) التي نشرت الحرير والبضائع الأُخرىٰ، ومجموعة من التقاليد الدينيَّة، والوعي المتبادل الخافت في ما بين الإمبراطوريات التي اتسعت من المحيط الأطلسي إلىٰ بحر الصين[16]. وفي الواقع يؤمِّن طريق الحرير مثالاً جوهرياً عن «كيف انتشرت الأَفكار والتقنيات عبر التاريخ مع طرق التجارة التي كان فيها التجّار بين الناشرين الرئيسيين»[17].

إن جزءاً مما صنع عناصر «العولمة الرقيقة» هذه، هو أن تلك المسافات التي نعتبرها غير ذات شأن كانت ضخمة، فكانت مهمة هرقلية أن يحاول نقل معلومات بمعدل 50 كيلومتراً في اليوم[18]. يضاف إلىٰ ذلك، أن التحول الهليني والروماني قد أثَّر أعظم تأثير في البُنى التحتية المادية الرسمية (فمثلاً كرست الأبنية والساحات للواجبات الرسمية) والجمال والفكر وطرز حياة النخبة من السكان المحليين. فعلىٰ سبيل المثال حكم البطالسة اليونان مصر عدة قرون، وحوت الإسكندرية المكتبة الرائعة التي أسَّسها الإسكندر الكبير. لكن المصريين العاديين عاشوا معظم نواحي حياتهم كما عاشوها قبل مجيء الغزاة[19]. وكان للأمويين أطول الآثار بقاء فيمن تغلبوا عليهم فقد زرعوا دينهم الدائم، كما زرعوا في معظم إمبراطوريتهم اللغة (ولو في أقل الحدود لأغراض الصلاة)[20].

لعل أكثر أشكال العولمة انتشاراً قبل 1492 وبالتأكيد أطولها بقاء هو انتشار المسيحية والإسلام في أجزاء من أوروبا وآسيا وأفريقيا (وامتد اليهود كشعب طولاً وعرضاً في النصف الشرقي من الكرة الأَرضية، ولكن بعد سيطرة الدينين الآخرين توقفت اليهودية عن المنافسة النشيطة لكسب متدينين جدد)[21]. والفرق الرئيسي بين انتشار هذه الأديان وانتشار أشكال العولمة هو أنَّها لم تكن محصورة بالطبقة النخبة. وبجمع جاذبية الرسالة العريضة مع فرض العلوم الدينية أخيراً من قِبل حكَّام كأديان دول، والمتغيرات المسيحية والإسلامية تبنَّتها المجتمعات، فقيرها وغنيها يعبدان نفس الإله، ولكن هذا بالطبع لا يمنع المسيحيين من قتل المسيحيين ولا المسلمين من قتل مسلمين آخرين، لكن مجموعة معتقدات عامة تعطي نقطة إنطلاق لتطوير بعض الأفكار المشتركة حول قضايا المبادئ الأخلاقية والمعنوية.

في أعقاب الغزوات الكولمبية حدث عصر جديد من العولمة الثقافيَّة كنتاج للاستعمار بشكل واسع، وأَصبحت عملية العولمة «عالميَّة» حقاً لكونها امتدت علىٰ الكوكب. إن اصطدام التوسعية الغربية بالمجتمعات علىٰ نطاق واسع في الأمريكتين وأفريقيا وآسيا الغربية والوسطى والشرقية جعل التفاوض الثقافي المعقد بين الغازي والمغلوب ضرورة. وعلىٰ مدىٰ أربعة قرون تلت، سافر ملايين الناس، أحراراً وعبيداً، آلاف الأميال ليعيشوا، ويعملوا ويقتلوا ويموتوا، وليخالط بعضهم بعضاً وكذلك السكان الأصليون. حتى القرن التاسع عشر كان الأوروبيون والأفارقة هم أول من انتقلوا، وبعد ذلك انضمت أعداد كبيرة من شرق وجنوب آسيا، وبشكل رئيسي من الصينيين والهنود إلىٰ صفوف مجموعات المهاجرين من قارات كثيرة.

كانت تكنولوجيا المعلومات والانتقال مساعدة لهذا التوسع الكبير لمجال العولمة الاجتماعيَّة والثقافيَّة. فاختراع الكتابة سمح بانتقال الأفكار خارج حدود الزمن الحقيقي وأبعد كثيراً من مجال صوت الكلام. وزادت آلة الطباعة

المتحرِّكة زيادة كبيرة في حجم المادة المكتوبة المتوافرة وخفضت كلفتها[22]. وأمكن أن تنتقل الصفحات والنشرات والكتب إلىٰ مسافات كبيرة. ومكَّنت السفن الأفضل الانتقال الواسع للناس والأفكار والبضائع. وحوالى سنة 1000 ميلادي استطاعت المراكب الإسكندنافية الطويلة التنقل بين الجزر في طريقها عبر مياه شمال الأطلسي لتصل إلىٰ أمريكا الشمالية، حتى قام بحارتها بالاحتفاظ بمستعمرات مؤقتة بأظافرهم. لكن تكنولوجيا بناء السفن والإبحار في القرن الخامس عشر وما بعده سهلت الرحلات البعيدة في المحيط مع أطقم أكبر من الملاحين وتركت أمكنة لنقل الشحن الهام[23]. واستطاعت الكتب والبضائع المصنعة والمواد الغذائية أن تجد طريقها حول العالم. وإذا تركنا التأثير الاقتصادي البحت، فقد شجع هذا تصدير واستيراد المصنوعات الثقافيَّة كالكتب والمطابع وأقمشة الملابس وتجهيزات المنازل ومكونات المطبخ الحديث. ومع مرور الوقت، تضم النخبة في أوروبا والولايات المتحدة الأشياء الجمالية الصينية واليابانية، وفيما بعد تضم النخبة في الهند واليابان أشياء من طراز الحياة للناس الغربيين. وأصبحت الإسبانية والبرتغالية والفرنسية وخاصة الإنكليزية لغات في قارات متعددة في أعقاب المستعمرين البحارة. فقد زرع المستعمرون بذور موت إمبراطورياتهم بتصدير أفكار التحرر القوية للقومية والاشتراكية إلىٰ الشعوب الخاضعة لهم.

عصر التواقت The Age of Simultaneity

بينما كانت أجزاء من الشعوب المعزولة سابقاً تهتم وتتأثَّر ببعضها بعضاً بدرجات متفاوتة من الحماس، فقد كانت بحاجة إلىٰ قفزة كبيرة في التصور لتفكر بما كان يجري في الممالك البعيدة في تلك اللحظة ذاتها. لقد قصّرت السفينة التجارية والسفينة السريعة زمن السفر عبر المحيط ولكن بقي الزمن يقاس بالأسابيع. لكن البرق والهاتف والمسجل، وبعد ذلك الصور المتحركة والراديو كلها أعطت ثورة في الإدراك الفوري الذي عمَّق بشكل كبير خبرات

الثقافات الأُخرىٰ. وأضافت عنصر الوقت الحقيقي سواء كان فعلياً أَو مثلياً (كما في حالة التسجيلات والصور المتحركة) إلىٰ الاتصالات البعيدة. (السفر جواً وخاصة الطائرات النفَّاثة لنقل الركاب قد تؤكد الإحساس بالوقت الحقيقي للاتصالات عبر المسافات الطويلة، لكن الاتصالات الكهربائية هي المفتاح لسد هذه الفجوة). يصف المؤرخ الثقافي ستيفن كيرن Stephen Kern هذا بالتواقت (أي حدوث الأشياء بنفس الوقت)، وفيه يكون الناس المنتشرون بالعالم متحدين بتكنولوجيا الاتصالات الفورية يمارسون إحساساً مشتركاً بالوقت والمكان[24]. إن التواقت، باعتماده علىٰ مستجدات الثورة الصناعية، نقطة فارقة للفترة الممتدة في أواخر القرن التاسع عشر إلىٰ الحاضر تضع خطاً فاصلاً بين هذه الفترة وبين العصور التاريخية السابقة من العولمة الثقافيَّة.

تقدم كارثة سفينة التايتانيك مثالاً عملياً عن التواقت. اصطدمت السفينة بالجبل الجليدي الساعة 11,40 مساء في 14 نيسان 1912؛ وفي الساعة 12,15 صباحاً أصدر القبطان نداء الاستغاثة (الطوارئ) من راديو السفينة؛ في الساعة 10,6 صباحاً التقطت السفينة كارباثيا Carpathia الإشارة وأبحرت باتجاه السفينة المصابة إصابة قاتلة، التايتانيك، وفي الساعة 1,20 صباحاً كانت أخبار كارثة التايتانيك تبث برقياً حول العالم. وفي الصباح التالي كانت ملايين الناس في عدد من القارات يحزنون، فقد جمعهم معاً البرق والهاتف والصحف التي تطبع إلكترونياً الأخبار المجمعة فوراً علىٰ مطابع عظيمة السرعة[25].

لنفكِّر بالصورة التالية للعولمة الثقافيَّة في الألفية الجديدة: احتفالات ليلة رأس السنة الجديدة 2000 من جميع أنحاء العالم نقلت بالتلفزيون مباشرة في الولايات المتحدة علىٰ شبكة CNN وشبكة PBC من بين قنوات أُخرىٰ. وخلال ساعات الصباح المتأخرة من 31 كانون الأول 1999 علىٰ الساحل الشرقي الأمريكي استطاع المرء أن يشهد الألعاب النارية ويسمع رنين الأجراس ويرىٰ فورة الأنشطة المسلية بينما يدخل شرق آسيا في الساعات الأولىٰ من 1 كانون

الثاني 2000. يستطيع المشاهدون أن يشهدوا أعجوبة تقنية أثناء انتقال الوصل التلفزيوني من قطر إلىٰ قطر بسرعة مذهلة.

وسواء عرف المشاهدون من أنحاء الكوكب أم لا، فإنَّهم كانوا يمارسون ربما المثال الدرامي الأعظم في تاريخ الإنسانية حتى تاريخه للتواقت الذي قال به كيرن Kern. ماذا جلب هذا التواقت في ليلة الألفية إلىٰ جماهير التلفزيون حول العالم؟ في وسط هذا الصخب الاحتفالي، قدمت لحظة واحدة كبسولة فيها عنصر متفوق من العولمة الثقافيَّة المعاصرة. وعندما بدأ القرن الجديد في سنغافورة كان نجم البوب المحلي بشعره الملون بالأشقر وبألبسته السوداء الأنيقة يرقص علىٰ مسرح واسع ويغني أشهر أغاني البوب، الأغنية اللاتينية ـ الأمريكية «Living La Vida Loca» لجمهور يشجعه بالهتاف. ولاحظ معلق القناة PBC ساخراً: يبدو أنَّه لا تخلو زاوية من الكرة الأَرضية من ريكي مارتن Ricky Martin. وكان مطرب من شرق آسيا يغني لحناً باللغة الإسبانية والإنكليزية لمغني بوب إسباني أمريكي مشهور في جميع أنحاء العالم وذلك بفضل قوة التوزيع لشركة تسجيلات كولومبيا Columbia وهي ذاتها شركة فرعية من شركة سوني اليابانية، كانت تذاع لعبته «جهود السنة الجديدة» مباشرة إلىٰ الولايات المتحدة بين أماكن أُخرىٰ. لا تظهر هذه اللحظة قدرة تكنولوجيا الاتصالات علىٰ نشر المعلومات وربط الناس بعضهم ببعض فقط، لكنها تظهر أيضاً جماعية وتنوّع التكيّف مع الثقافة الأمريكية. وهذا الربط بين تكنولوجيا الاتصالات المتطورة دوماً والثقافة الأمريكية الشعبية كان دافعاً رئيسياً في العولمة الثقافيَّة للقرن العشرين، ويتابع تشكله ليكون هاماً كذلك للكثير من القرن الجديد أيضاً.

القوة العالميَّة للثقافة الأمريكية الشعبية

بينما يذهب ستيورات هول Stuart Hall بعيداً في مساواة العولمة الثقافيَّة بالأمرَكَة (ومن ثم بالتجانس)، فهو علىٰ حق تماماً عندما يصف المجال الثقافي

العالمي المعاصر بأَنَّه «تسيطر عليه الفنون المرئية والتصويرية. . . يسيطر عليه التلفزيون والأفلام والصورة والتصور وأساليب الإعلانات الكثيرة»[26]. إنَّها مملكة الثقافة الشعبية، وإنَّها هنا حيث تمتلك الولايات المتحدة تفوقاً كبيراً على جميع الدّول الأُخرىٰ.

سوف تكون الولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين بكافة الاحتمالات القوة العظمى الوحيدة في الثقافة العالميَّة إلىٰ الحد الذي كانت عليه في القرن العشرين علىٰ الأقل، ويحتمل أن تكون أكثر. وبناء علىٰ سوابق تاريخيَّة، سوف تسيطر الولايات المتحدة سريعاً علىٰ أية وسيلة اتصالات جماهيريَّة جديدة قد تتطوَّر، ولن تخسر الولايات المتحدة أية أَرضية في أية منطقة تسيطر عليها الآن. وسوف تكون هذه السيطرة ضد التراجع وضد الكوارث الديلوماسية. ودور الأحداث هذا ممكن لأن الولايات المتحدة قد أقامت سيادة مسيطرة علىٰ تقنيات التسلية والبرمجيات في القرن العشرين؛ وتمتلك مزايا فريدة تعطي أعصاباً قوية مرعبة في هذا المجال؛ ولا يوجد قادمون جدد في الأفق، ولا يحتمل أن يوجد[27]. لقد حافظت الولايات المتحدة علىٰ قيادة آمرة في السباق الثقافي والتسلية عملياً منذ أن انضمت إليه بحماسة (بسبب جمع شجاعة المدراء الأمريكيين وظروف خارجية مساعدة كالحرب العالميَّة الأولىٰ والثانية).

والآن إن أحدث حَمَلة لواء هذا المركز ومعززيه هم: مايكل جوردان Michael Jordan، وحرس الشواطئ Bay Watch ونايك Nike، وماكدونالدز MacDonald's وديزني Disney، وبريتني سبيرز Britney Spears، وتيد تيرنر Ted Turner، وبيل غيتس Bill Gates.

الثقافة الشعبية مفهومة علىٰ أَنَّها نتاج للمجتمع ككل متأصِّل في الولايات المتحدة في أعقاب الحرب الأهلية. والظواهر التي توحدت بشكل فريد في ذلك الحين (وفي بعض الطرق، مع متغيرات حتى الوقت الحاضر) في الولايات

المتحدة وأعطت الثقافة الشعبية شكلها هي: تصنيع سريع، ونمو مدني، وجماهير الملونين الذين تحرروا حديثاً، وتدفق المهاجرين من أوروبا الشرقية والجنوبية، وبدء التعليم الإلزامي الشامل، وخلق وسائل جديدة للاتصالات العامَّة[28].

كانت المستعمرات الأنغلو ـ أمريكية، والتي ستصبح أخيراً الولايات المتحدة، منذ البدء أعراقاً وثقافات متعددة. ففي سنة 1700 كان السكان بين نهري الهدسون والديلاوير من المستوطنين الهولنديين والإنكليز والألمان واليهود والفرنسيين والوالونيين والأفارقة والسويديين والإسكتلنديين[29]. وكما قالت إحدىٰ الدراسات، أمريكا «دائماً تواجه الحاجة لخلق ثقافة معيارية لا تهدد معظم أفراد المجتمع بقليل أَو كثير. وإلىٰ الحد الذي «تجاوزت» فيه مثل هذه الثقافة الأوامر الناجمة عن الفروق بين الثقافات الأمريكية المتنوعة فإنَّها كانت بذلك أيضاً أكثر المنتجات ملاءمة للتصدير»[30] إن كانت أمريكا متعددة الثقافات في أوائل تجسيدها، فإنَّها عند دخول القرن العشرين كانت خليطاً متعثراً من الناس الذين تجمعوا من أربعة أركان الأَرض ـ ففي سنة 1910 كان 75٪ من سكان نيويورك وشيكاغو وكليفلاند وبوسطن مهاجرين أَو أولاد مهاجرين[31] ـ وجعل هذا كثيراً من الأمريكيين من أحفاد البروتستانت من أوروبا الشمالية يقلقون من «الانتحار العرقي»[32]. فمعظم هؤلاء الناس يكدون ويتوصلون إلىٰ أجور عالية نسبياً بالمقارنة مع العمَّال في بلاد أُخرىٰ، ولديهم الوقت والميل إلىٰ صرف بعض أجورهم علىٰ التسلية والفراغ. واستمر هذا الوضع بصورة واسعة حتى يومنا هذا.

من غير المدهش أن الولايات المتحدة بتركيبتها السكانيَّة تستقبل بقوة المؤثِّرات الثقافية الخارجية، وغالباً ما تدمجها في النسيج الثقافي الأمريكي. وغالباً ما اختلطت إسهامات ثقافة ما بإسهامات ثقافات أُخرىٰ وكونت هجائن قوية بصورة خاصة. فاجتماع الموسيقى الشعبية الأفريقية والكلتية مثلاً أنتج

المصطلحات الموسيقية الشعبية المعروفة بالبلوز blues، والريفية الغربية والروك أند رول. ورحبت هوليوود بأجيال من الفنانين الغرباء من أمثال فرتز لانغ Fritz Lang، وديفيد لين David Lean، وميلوس فورمان Milos Forman، وجون وو John Woo، الذين جلبوا معهم تقاليد سينمائية كالتعبيرية الألمانية والرومانسية الإنكليزية، وضد السلطوية من أوروبا الشرقية بعد الحرب، وعروض الباليه شديدة الحركة من هونغ كونغ. والثقافة الأمريكية الشعبية هي في حالة تخمر دائم. وفي الوقت نفسه وبسبب الآثار «الأجنبية» الكثيرة، توجد عناصر كونية تستطيع أن تعزف على أوتار الاعتراف والتقدير في العالم كله.

إن جمع سوق ضخمة متنوعة القوى مع تكنولوجيا تناسب النشر الواسع للبضائع والخدمات ـ المعامل التي تستطيع إنتاج مئات السيارات يومياً، ومعدات صناعة الأفلام وعرضها، والمطابع عالية السرعة وما شابه ـ وثقافة اقتصاديَّة كبيرة في الإدارة كان هذا الجمع ولا يزال قابلاً للانفجار. فالرجال الذين أوجدوا هوليوود إضافة إلى بعض الإدارات البارزة في حقول ثقافية أخرى (مثلاً هنري فورد Henry Ford) لم يكونوا من النخبة الأمريكية، بل كانوا بصورة رئيسيَّة من خلفيات متواضعة وبالتالي متوافقين تماماً مع متوسط أذواق العامَّة[33].

تبين أن إرضاء الأذواق المتنوعة للعامة الأمريكية مصادفة هي أَرضية تدريب للتوسع إلى الأَسواق العالميَّة. صرح وليام هيس William Hays ذات مرة، وهو أول رئيس في هيئة المنتجين والمخرجين السينمائيين الأمريكيين MPPDA، وهي التي سبقت ما يعرف بهيئة السينما الأمريكية MPAA: «يوجد سبب خاص يوجب على أمريكا أن تنجب وترعى السينما وتسليتها للعالم. إن أمريكا دولة العالم حقاً وبالمعنى الحرفي للعبارة. فجميع الأعراق والمعتقدات وكل الرجال موجودون هنا»[34]. فقد ساعدت الميزات الفريدة للسوق الأمريكية على الانتقال العالمي لثقافة الأمة الشعبية عموماً، وكما يشرح أحد المحللين الإعلاميين ويليام ريد William Read:

«إن المهارات والخبرات الأساسية المفيدة عند التوسع إلىٰ أسواق أجنبية متنوعة، كان قد تم الحصول عليها ضمن الولايات المتحدة، وهي ليست سوقاً قومية واحدة مجمعة من أسواق فرعية. . . لقد كانت الأتصالات العامة في الولايات المتحدة تقليدياً مصبوغة بإحساس قوي من المحلية. وخدعة منظَّمات وسائل الإعلام الكبيرة هي خلط العمليات المحلية في خطط البلاد كلها. والموهبة التي تطورت في هذا العمل انتقلت للاستعمال الخارجي»[35].

كان هذا الجمع بين التدريب وموضوع الحس العام والأحاسيس قوياً فعلاً في نجاح الثقافة الأمريكية الشعبية في الوصول إلىٰ الأَسواق العالميَّة. بالإضافة إلىٰ ذلك، أمضى الأمريكان الثلث الأول من القرن العشرين يطورون بنشاط ويسيطرون بسرعة علىٰ قطاعات المعلومات/ الاتصالات والسفر اللازمة لنشر الثقافة الشعبية الأمريكية نشراً فعَّالاً علىٰ المستوىٰ العالمي. يشمل ذلك الكوابل البحرية والراديو والبرق اللاسلكي وخدمات الأخبار والطيران[36]. أضف إلىٰ ذلك نزعة منتجي الثقافة الأمريكية إلىٰ استخدام، الطريقة الأمريكية النموذجية بإدارة الأعمال، اقتصاديات القياس التي تخفض الكلفة للقطعة لدىٰ المستهلك. وفضلاً عن ذلك، فإن الحجم الكبير للسوق المحلية للسينما وبرامج التلفزيون والموسيقى والأزياء والسيارات ووفرة من البرمجيات الأمريكية الأخرىٰ، والسلع الثقافية الصلبة كلها تعني أن المنتجين الأمريكيين يستطيعون أن يخفضوا تكاليف منتجاتهم في الوطن وهذا بدوره يعني أن التوزيع الخارجي مربح جداً.

كانت الثقافة الأمريكية الشعبية من صنع الشركات الخاصة، ليس في إبداعها فحسب بل وفي الجزء الأكبر من نشرها عالمياً. عند هذه النقطة تقف الولايات المتحدة مقابل الدّول الصناعية الكبرى الأُخرىٰ التي تنصب حكوماتها

نفسها ليس كدعاة اقتصاديين فحسب بل وقضاة جمال وأفكار أيضاً[37]. بينما تكون معظم الحكومات مشغولة في الوقت الحاضر بحماية صناعاتها الثقافيَّة ومؤسساتها بقدر ما تستطيع ـ وهو شيء قليل جداً ـ من التفوق الأمريكي، تتابع فرنسا بصورة خاصة جهوداً قوية علىٰ أُسس فكرية وفنية لتشجيع عطاءاتها الثقافيَّة بما فيها البرامج التلفزيونية للأمم الفرنكوفونية (الناطقة بالفرنسية) حول العالم.

تلعب الحكومة الأمريكية دوراً ثانوياً في دعم نشر الثقافة، بالمقارنة مع دول أُخرىٰ. ولا نقول هنا إن الحكومة الأمريكية لم تساعد في عملية الانتشار. فقد لعبت وزارة التجارة ووزارة الخارجية دوراً مفيداً في مساعدة صناعة الإذاعة الأمريكية ومعلومات الأخبار والسينما والتلفزيون لتكسب مواقع أقدام في الأَسواق الأجنبية ولتحافظ عليها[38]. كان لدى الحكومة سبب جيد لمساعدة صناعة الثقافة الأمريكية؛ تشكل هذه الصناعة ثاني أكبر مصدر دخل من صادرات البلاد بعد الصناعة الفضائية. ففي سنة 1992 مثلاً، ارتفعت صادرات التسلية الأمريكية إلىٰ أوروبا وحدها إلىٰ 4,6 بليون دولار[39].

باستثناء فترات قصيرة خلال الحرب العالميَّة الأولىٰ والثانية في النصف الأول من القرن العشرين، قامت حكومة الولايات المتحدة بمحاولات صغيرة لتؤثِّر في انتشار الثقافة الأمريكيَّة الشعبية انتشاراً محلياً أَو عالمياً. وغالباً ما تلجأ هيئة تصدير الأفلام الأمريكيَّة وشركات الثقافة الأمريكيَّة الشعبية إلىٰ حكومة الولايات المتحدة من أجل المساعدة علىٰ فتح أَسواق أجنبية والحفاظ عليها وتوسيعها[40]. ولكن في مثل هذه المساعي كانت شركات القطاع الخاص ولا تزال القوة الدافعة بدون تغيير تقريباً. عندما ناضل المحامي السابق عند شركات التسلية ميكي كانتر Micky Kanter بقوة وعنف كبيرين كمفاوض تجاري من الولايات المتحدة لتضمين صادرات الوسائل المسموعة والمرئية كعنصر من السوق الحر في مفاوضات الغات سنة 1993، أوضح بما لا يدع مجالاً للشك

كيف تخدم الحكومة بدور مدافع قوي عن صناعات الثقافة الأمريكيَّة الشعبية ذات المواقف المدفوعة اقتصادياً بالدرجة الأولى[41].

أمريكا ودول أُخرىٰ: التباين (الفروق)

قارن المثال الأمريكي paradigm والوضع التاريخي بين المنافسين الأقوياء للثقافة الشعبية في الولايات المتحدة. ففرنسا وألمانيا واليابان مثلاً كلها متجانسة ثقافياً، وهذا لا يؤدي إلىٰ شحذ القدرة لإرضاء جماهير متميزة. (بريطانيا نوعاً ما غير متجانسة وتربطها بالولايات المتحدة لغة مشتركة)، نجحت في فترات في الدفع إلىٰ المجال الثقافي الموسيقي العالمي، فعلىٰ سبيل المثال، فرق موسيقى البوب من البيتلز Beetles إلىٰ سبايس غيرلز Spice Girls، وسلسلة أفلام جيمس بوند (بتمويل وتوزيع أمريكي). وكان الاتحاد السوفياتي غير متجانس بصورة غير طبيعية، لكنَّه كان يسيطر عليه نظام شيوعي يحاول أن يفرض الذوق لا أن يرضيه، وكان في نفس الوقت إمبراطورية من طراز قديم تربطها معاً قوة الجيش الأحمر القاهرة، بيئة لا تكاد تطور فيها ثقافة متعددة الأعراق ترضي المستهلك.

الأكثر من ذلك أَنَّه توجد في دول أُخرىٰ هوة عميقة بين النخبة المنتجة للثقافة وبين مستهلكيها. إن وسائل الإعلام في الولايات المتحدة تعتبر أولاً وقبل كل شيء وسائل نشر للثقافة الشعبية مثل السينما والتلفزيون، ينظر إليها من قبل صناعي الذوق في لندن وباريس وبرلين وفي أماكن أخرىٰ علىٰ أَنَّها أقنية ثقافية عالية ـ علىٰ الأقل عندما تستخدم بصورة صحيحة (أندريه مالرو André Malaraux ـ إضافة إلىٰ أعماله الأُخرىٰ ـ وزير الثقافة لشارل ديغول Charles de Gaulle، أشار إلىٰ السينما علىٰ أَنَّها «أكثر من ذلك فهي صناعة»)[42]. ونتج عن ذلك بعض التحديات الفنية الممتازة، وهي علىٰ الغالب أفلام وبرامج تلفزيونية وموسيقى تدعمها الحكومة. لكنها غالباً ما أنتجت وضعاً غير ممتع بشكل واضح بالنسبة لجمهور البلد المنتج، وهو أقل كثيراً بالنسبة للجماهير الممكنة

في بلاد أُخرىٰ[43]. كما لاحظت المؤرخة إيملي روزنبرغ Emily Rosenberg في ما يتعلَّق بصناعة السينما الأمريكيَّة سرعة انتقال سيطرتها العالميَّة في أوائل القرن العشرين، «مقابل أفلام النخبة الأوروبية»، كانت الأفلام الأمريكيَّة تروق لجماهير العامة. كانت الأفلام الأمريكيَّة الأولىٰ مصمَّمة لتتمتع برعاية متعددة الأعراق في الوطن، وليس بحسب تقاليد فن النخبة، وكانت تناسب السوق العالميَّة تماماً[44].

إضافة إلىٰ ذلك، ليس لدىٰ المنافسين المحتملين ثقافياً لأمريكا عدد سكان كاف لدعم الصناعة الثقافيَّة الشعبية الضخمة والمعروفة عالمياً بدون معونة، فرنسا مثلاً، وهي الأمة التي وضعت نفسها بكل تأكيد البديل الثقافي للولايات المتحدة، عدد سكانها خمس عدد سكان الولايات المتحدة تقريباً. إن ثقافات العمل في هذه الدّول، علىٰ الأقل عندما تأتي إلىٰ الثقافة الشعبية، جُمعت منذ زمن مع عدد السكان الصغير نسبياً لمناهضة تطوير اقتصاديات القياس. تغيرت هذه الحال نوعاً ما في العقدين الماضيين من القرن العشرين، لكن التغير حدث بصورة رئيسية نتيجة الاستثمار الأجنبي في أعمال الثقافة الأمريكيَّة الشعبيَّة[45]. الصين والهند، وهما أكثر الأمم سكاناً، فيهما أَسواق محلية ضخمة، وبالفعل إن صناعة الفيلم الهندي «بولي وود Bollywood» هي الأكبر في العالم من حيث الإنتاج المحض. لكن، وكما لوحظ سابقاً، الثقافة الهندية intoto وجدت جماهير عالميَّة، إن ثقافتها الشعبية تروق للهنود في الهند بالمكان الأول وفي جميع أنحاء العالم (علىٰ الرغم من أن رائعة الأفلام الأمريكيَّة في أواخر التسعينيَّات «إليزابيث Elizabeth» الذي يحكي قصة الملكة التيودورية الإنكليزية، كان من إخراج صانع أفلام هندي وبأسلوب بولي وود Bollywood المتميز بالدراما المفرطة وبالألوان الزاهية)[46]. والصينيُّون، الذين لا تزال عطاءات ثقافتهم الشعبيَّة غالباً ما تقيدها الرقابة الرسمية، يستهلكون كل ما تقع أيديهم عليه من الثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة بنهم شديد.

اللُّغة والإيديولوجيا

توجد مكونات حاسمة أُخرىٰ للنجاح العالمي للثقافة الشعبية الأمريكيَّة منذ انتقالها المبكر إلىٰ ما وراء البحار. أولها اللُّغة الإنكليزية. فالبروز العالمي لبريطانيا العظمى زمناً طويلاً واتساع مصالحها الاستعمارية جعل اللُّغة الإنكليزية تنتشر بصورة واسعة منذ القرن الثامن عشر حتى الآن. وآزرت الولايات المتحدة وعمَّقت هذه العملية في وسائل إعلامها وانتقلت الأعمال إلىٰ المجال العالمي في القرن العشرين. وبعيداً عن الدفع الذي تقدمه دولتان من أقوى دول العالم إلىٰ اللُّغة الإنكليزية، فإنَّها مناسبة لغوياً بصورة فريدة لاستخدامها الواسع كلغة ثانية[47].

إضافة إلىٰ ذلك، تتحاشى اللُّغة الإنكليزية في معظم أقسامها التمييز المشترك في اللغات الأُخرىٰ بين الصيغة الثقافية أَو الأَرستقراطية العالميَّة والصيغة الشعبيَّة، وكذلك الإختلافات بين اللُّغة المكتوبة واللُّغة المحكية.

ولا يوجد ما يشبه الأكاديمية الفرنسية التي تؤسِّس وتحافظ علىٰ مجموعة متشددة من القواعد الخاصة بالتهجئة والنحو واستخدام أَو استيراد كلمات أجنبية[48]. فاللُّغة الإنكليزية، وهي التي تستمد في جوهرها من الألمانية القديمة والفرنسية القديمة مع بقايا واضحة من اللاتينية واليونانية، تعمل كإسفنجة تمتص مفردات، فتجرد المفردات والعبارات الإسبانية والهندية واليدية والصينيَّة والأمريكيَّة الأصلية والإفريقية طريقها إلىٰ الاستعمال. وغياب الإنكليزية «الأصيلة» «Hock English»، وهذه المفردات من لغات متعددة أعطتها قيمة إيجابية إيديولوجية أيضاً.

وهذا يقودنا إلىٰ العنصر الأخير الضروري للشعبية، ومن ثم لقوة الثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة: لقد سحرت الثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة العالم منذ أواخر القرن التاسع عشر عندما أخذ بوفالو بيل كودي Buffalo Bill Cody عرضه «الغرب المتوحش» Wild West إلىٰ أوروبا وما وراءها من خلال ظهور هوليوود، وأول

فيض من صور الثقافة الاستهلاكية الأمريكيَّة، وسخر نجوم السينما، ومن خلال سيل البضائع الأمريكيَّة والتسلية في فترة ما بعد الحرب العالميَّة الثانية حتى الوقت الحاضر حيث المسلسل التلفزيوني «Bay Watch»، البرنامج الوحيد الأكثر شهرة في العالم الذي يصور ثقافة الشاطئ في كاليفورنيا الجنوبية (ومنذ انتقاله إلىٰ هونولولو في خريف 1999، هاواي) وكأَنَّها حقول فردوسية مع الرمال[49]. وخلال القرن العشرين بدت الولايات المتحدة للآخرين ساحرة وغريبة وغنية وقوية ومحددة الاتجاه تضع حداً فاصلاً للعصرية والتجدد[50].

إن الثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة هي بالتناوب جنسية وعنيفة وساحرة ومادية ورومانسية. وسواء من حيث التسلية أو تسويق السلع الاستهلاكية إنَّها علىٰ العموم متفائلة ومألوفة وديمقراطية. والكثير منها يتفاخر بالفردية واللاسلطوية وبانتصار المحرومين علىٰ الأقوياء. بينما يوجد الكثير مما هو أمريكي خصوصاً حول الثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة ـ سواء كان نجوم هوليوود وأماكن مثل نيويورك ولوس أنجلوس في الأفلام والتلفزيون، وأيقونات الرياضة الأمريكيَّة والثقافة المعاكسة في الأزياء وحتى وجبات الطعام السريعة والروك والراب في كلياتها ـ ومواضيعها الشاملة يتم اختيارها عن عمد لقوتها التجاريَّة، وتنتقل بصورة جيدة جداً من ثقافة إلىٰ أُخرىٰ[51].

تصور الثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة ولايات متحدة فيها مواطنون جذَّابون وحازمون وناجحون، يلبسون جيداً، وهم ساخرون وبليغون وخياليون وأحرار في التعبير عما يجول في عقولهم وقادرون علىٰ تحقيق أحلامهم. وتصور أمريكا علىٰ أنَّها متعددة الأعراق، ساحرة وسريعة الخطوة، صوتها أجش تملؤها البراري وجمال المدن، وقوية، اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً[52].

والمشكلة الكامنة هي أن ليس لحكومة الولايات المتحدة سلطة عملية علىٰ محتوى ونوعية التسلية والمنتجات التي يصدرها القطاع الخاص إلىٰ جميع أنحاء العالم[53]. وهذا غالباً ما يكون جزءاً من السحر، مثلاً الأفلام التي تنتقد المجتمع

المحلي تعطي دليلاً علىٰ القوة العظمىٰ التي لا تخشى المعارضة. ولكن، من وقت لآخر، تستطيع الأخطاء الناجمة عن القطاع الخاص أن تؤذي الصورة الأمريكيَّة القومية ولو بصورة موجزة: رد فعل شركة كوكاكولا بعدم تصديق التقارير عن منتجاتها التي تسببت بمرض الأوروبيين الغربيين في منتصف سنة 1999، في وسط أزمة كوسوفو والحروب التجاريَّة حول الموز بين الولايات المتحدة وأوروبا كانت ضربة للهيبة الأمريكيَّة في الإقليم خلال فترة صعبة[54].

كيف تتناسب الإنترنت مع هذا كله؟ باختصار، إنَّها مصنوعة حسب الطلب لتلعب لصالح قوة أمريكا ولتقدم الفكرة الأمريكيَّة. فالولايات المتحدة تذهب إلىٰ أبعد من أي دولة أُخرىٰ في حماية حرية الكلام. إن التعديل الأول علىٰ قسم اللغة يعطي مجالاً صغيراً للتردد، وحتى الدّول الغربية الأُخرىٰ يجب أن تنشغل بالمراقبة أَو بأشكال أُخرىٰ من كتب المعلومات. لقد كانت الإنترنت منذ تأسيسها مصبوغة بلون قوىٰ التحرر الجذري، إنَّها أحدث ظاهرة تظاهرة للإيديولوجيَّة المعارضة الجذرية الهويغية Whig، التي تخشى الطغيان وترتاب بشدة من أية مؤامرات علىٰ الحرية، التي عرّفها المؤرخ برنارد بيلين Bernard Bailyn علىٰ أَنَّها مركزية للوعي السياسي في أمريكا القرن الثامن عشر، ولتأسيس الولايات المتحدة[55]. ولقد باءت محاولات رسمية في الولايات المتحدة لتشريع ضوابط أَو حدود للمحتوىٰ بالفشل مراراً، والتقييدات التقنية علىٰ المصافي ومراقبة أعمال المستخدمين تعني عملياً أن كل ما يستطيع أن يشاهده الأمريكيون علىٰ الإنترنت، يستطيع أن يراه معظم المستخدمين لهذه الشبكة في العالم أيضاً.

ما الذي يريد أن يراه مستخدمو الإنترنت أكثر من أي شيء آخر؟ الرمز للجنس في أمريكا باميلا أندرسن لي Pamela Anderson Lee مصورة علىٰ الڤيديو في Flagrante delicto مع عازف غيتار الروك. في سنة 1998 ـ 1999 «باميلا أندرسن» كانت العبارة الأكثر شهرة علىٰ الإنترنت ـ هذا ما لاحظه المسوِّقون

الأذكياء عن هذه الشعبيَّة واستخدام العبارة للربط مع منتجات لا علاقة لها بما في ذلك توريدات أنابيب المياه. والتقديرات أن اسم الممثلة السينمائية وصورتها حقَّقا دخلاً مقداره 77 مليون دولار حتى نيسان 1999 وحدها[56]. وكانت حرية الكلام والتسلية والإدارة هي المحرك لسيطرة الأمريكيَّة العالميَّة في وسائل الإعلام، والإنترنت بدون شك تقريباً لن تكون استثناء. وكالمحركات الأُخرىٰ لانتشار الثقافة الشعبية الأمريكيَّة، إن الإنترنت هي المدفع الحر ذو القدرة علىٰ إخراج الولايات المتحدة في مناسبات، وعلىٰ تزويد منافسيها وأعدائها بسوق يستطيعون فيها المنافسة. لكن الولايات المتحدة ذات الالتزام المقنن والأقدم والأوضح بحرية الكلام أكثر من أية دولة أُخرىٰ، هي أفضل استعداداً من أكثر الدّول الأُخرىٰ علىٰ التعامل مع تقلبات الإنترنت.

لكن، سوف تكون السينما في المستقبل المنظور أكثر أهمية من الإنترنت أَو حتى من التلفزيون والراديو كوسيلة لنشر الثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة في الخارج. فخارج الولايات المتحدة وحفنة من الأمم الغنية الأُخرىٰ لا تزال الإنترنت ضرورة بالنسبة للنخبة. وهبوط الأَسعار بلا شك سوف يوسع مجال مستخدميها كثيراً. لكن معظم البيوت في العالم لا تزال بدون اتصالات هاتفية بسبب المودم أَو حتى بدون الكهرباء من أجل التلفزيون. وما دامت هذه الحقيقة مستمرة، سوف يبقى عرض الأفلام عروضاً عامة الوسيلة الرئيسية لبث حلم الثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة، بيع عمل احتيالي، وجنس، وأحذية رياضيَّة.

وفي الواقع، حتى عندما يصبح لكل بيت علىٰ الأَرض توصيلات كهربائية، وتلفزيون واتصال بالإنترنت، سوف تقف هوليوود وحدها تقدم الحلم: أفلام تجعل من الإيقونات وفي المناظر البعيدة وحتى المنتجات تماثيل بتقديمها أكبر من الحقيقة بالمعنى الحرفي؛ والتلفزيون والإنترنت بالمقابل يصغِّران الصور ويجعلانها عملاً يومياً مملاً. وحتى التلفزيون بشكله المكبر لن يصل إلىٰ الحجم الأسطوري لشاشة السينما، وبالتأكيد لن يقترب من قبولها

الشامل. إن أجهزة الراديو وسيلة صغيرة ورخيصة الثمن ومتوفرة في كل مكان لنشر الموسيقى الشعبية والإعلانات، ولكن لا تزال الصورة تساوي ألف كلمة. وسوف تستمر هوليوود لتكون كما كانت دائماً: مصنع الحلم الأمريكي حتى إن شخصيات مثل ستالين Stalin وغوبلز Goebbels حلموا فقط بإعجاب بتقليدها[57].

عكس أقطاب تأثير الثقافة الأمريكيَّة

لكن يوجد عنصر للتفاوض بين المنتجين الأمريكيين للثقافة الشعبية ومستهلكيها في العالم الذين يستطيعون الذهاب إلىٰ ما هو أبعد من مفهوم التهجين والتوحيد والعولمة الموصوفة في ما تقدم من هذا الفصل. ففي بعض الحالات سوف تحاول دول أُخرىٰ أن تحول الثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة إلىٰ استعمالاتها الخاصة. ويستطيعون القيام بهذه الجهود إما بالتعاون مع منتجين للثقافة وإما بجهودهم الخاصة.

مثال واحد حديث هو فيلم والت ديزني سنة 1997 «مولان Mulan»، الذي يعيد حكاية الملحمة الصينيَّة القديمة حول الفارسة. لقد أنتج فيلم مولان في أعقاب سوء التفاهم بين ديزني وبكين حول فيلم المخرج مارتن سكورسيس Martin Scorsese حول سيرة حياة الداي لاما (كوندون Kundan) الذي أنتجته ميراماكس Miramax وهي فرع من ديزني، فأغضب القيادة الشيوعية لتصويره الوحشية الصينية في التيبت وجعلهم يهددون بمنع ديزني في الصين (استراتيجية ديزني في الصين بين أشياء أُخرىٰ تشتمل علىٰ خطط طويلة الأجل لديزني لاند الصينيَّة). لقد أعطيت مولان البروفيل العالي المعتاد الذي يطلقه ديزني بالدمىٰ والملاحق الإعلانية الأُخرىٰ في الولايات المتحدة وحول العالم. لقد كانت صورة الصين أكثر إيجابية في فيلم أمريكي أكثر مما كانت قبل وأثناء الحكم الشيوعي. تم إرضاء الصين وسُمح لديزني بالاستمرار بالعمل في الصين[58].

مثال آخر أحدث جاء من صربيا خلال صراع كوسوفو في سنة 1999. أولاً

وقبل كل شيء، بطريقة صدام حسين نفسها في العراق سنة 1991، زود ميلوسيڤتش Milosevic محطة CNN ومنظَّمات إخبارية أُخرىٰ بالوصول إلىٰ بلغراد بدون عوائق وإلىٰ الأهداف الصربية وضحايا قصف شمال الأطلسي بما فيها داخل كوسوفو نفسها. ثانياً، استخدمت منظَّمات مؤيدة لصربيا الإنترنت استخداماً فعالاً لدفع خط بلغراد ولزرع الشكوك حول الأساس العقلي لعملية حلف شمال الأطلسي لأي شخص يبحث «عن الجانب الآخر من القضية». ثالثاً، إن شعار عين الثور الذي وضع آلاف القمصان التي لبسها الصرب ومؤيدوهم قد سرق من شعار مخازن تارغيت الأمريكية American Target Stores. رابعاً، لقد بث التلفزيون الصربي دون انقطاع أفلاماً أمريكيَّة مثل: Wag the Dog، Apocalypse Now، The Great Dictator، وSchindler's List وذلك ليرسموا الهجوم الذي يقوده الأمريكيون علىٰ أَنَّه نتاج للسياسات المحلية للولايات المتحدة الأمريكيَّة، ولربط الهجوم بجنون القيتنام ولمعادلة الناتو بالنازية.

وفي المستقبل سوف يكون دون شك أمثلة أكثر لهذه الظاهرة وبطرق أكثر إثارة من تلك التي وصفتها الأمثلة السابقة. في أطروحة الدكتوراه قمت بفحص كيف حاول نظام فرانكو الفاشي في إسبانيا، بعد الحرب العالميَّة الثانية أن يستخدم السياحة الأمريكيَّة في إسبانيا وإنتاج الفيلم الأمريكي في إسبانيا لدعم صورته في الولايات المتحدة وفي أماكن أُخرىٰ، وللمساعدة في بناء اقتصاده المنهار[59]. يمكن للمرء أن يتخيّل جيداً نظام ما بعد ميلوسيڤتش يحاول فعل الشيء ذاته لصربيا (بالفعل كانت يوغوسلافيا ملجأ لأعمال الإنتاج الأجنبي في السبعينيَّات والثمانينيَّات)، أَو يتخيل نظاماً في بكين في المستقبل يقرر عودة العلاقات السياسيَّة والاقتصاديَّة الودية مع الولايات المتحدة دون التراجع عن ذلك[60].

القوة اللينة للثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة وحدودها

لقد أعطت السيطرة الأمريكيَّة علىٰ إنتاج الثقافة الشعبيَّة ما يسميه جوزيف

ناي Joseph Nye القوة اللينة، القوة لأن تقنع أَو تضم، مقابل القوة الصلبة أَو قوة الإرغام. وكما يقول ناي: «القوة اللينة هي قدرتنا علىٰ الحصول علىٰ ما نريد عن طريق الجذب بدلاً عن طريق الإرغام. فعندما تريد دول أُخرىٰ النتائج نفسها التي نريدها، فعندئذ نستطيع الحصول علىٰ ما نريد دون الاضطرار إلىٰ الإنفاق بقدر الإنفاق علىٰ الإرغام[61]. لكن حجر الزاوية في نظرية العلاقات الدّولية الواقعية هو أن الدّول الأضعف ستجتمع لتكبح أَو حتى تهزم دولة قوية ترىٰ في قوتها تهديداً شاملاً لها. إن القوة اللينة الأمريكيَّة المجسدة بالثقافة الشعبيَّة لن تكون بذاتها سبباً لأي تراجع سياسي كبير ضد الولايات المتحدة؛ ولم تفعل ذلك حتى الآن خلال قرن من السيطرة المتزايد في هذه الساحة.

أما الآن، ولأول مرة تصل القوة الأمريكيَّة الصلبة لتماثل تفوقها في القوة الليِّنة الذي حافظت عليه الولايات المتحدة زمناً طويلاً جداً، وعلىٰ وجه الخصوص في المجال العسكري حيث تقف الولايات المتحدة في مجالها الخاص بها بدون أي متحد خطر. تنفق 270 بليون دولار في السنة علىٰ الدفاع مقابل مثلاً أقل كثيراً من 35 بليون لكل من روسيا والصين. في القرن الحادي والعشرين سوف تكون الولايات المتحدة ما أشار إليه وزير الخارجية الفرنسي هيوبرت فيدرين Hubert Vedrine «بالقوة الأعظم» في العالم التي لا يقابلها قوة موازية فعَّالة لأول مرة من حيث مجالات القوة الليِّنة والقوة الصلبة، وبذلك تكون المصدر الدائم للقلق بالنسبة للدول والأحلاف الأُخرىٰ. إن توأمة تفوق القوَّة الأمريكيَّة الليِّنة والصلبة تمكنها من أن تغير من التصور الموجود والذي يتآكل عن الولايات المتحدة كزعيمة للعالم طيبة نسبياً. وبشكل خاص، إذا نُظر إلىٰ الولايات المتحدة علىٰ أنَّها تدفع بأجندتها العسكرية والاقتصاديَّة بشكل مؤكد ومستمر، فالصورة المتفائلة والساحرة لأمريكا المحبة للتسلية التي رسمتها هوليوود بفاعلية، يمكن أن تغطيها صورة الولايات المتحدة كقوة استعمارية متسلطة بل وحتى خطرة، وهي، بحسب كلام ثيوسيديدس Thucydides: «تفعل ما تستطيع وتجبر الآخرين علىٰ فعل ما يجب عليهم فعله».

في هذا المشهد القوَّة الليِّنة، وهي مربوطة إلىٰ القوَّة الصلبة بطريقة غير مريحة، والتي تبدو خارجة عن السيطرة، يمكن أن ينظر إليها لا علىٰ أَنَّها قوة لينة للتسلية والاستهلاك السليم، أَو حتى إقناع لطيف من قِبل المستهلك الوسطي في العالم، بل ينظر إليها علىٰ أَنَّها قوة صلبة في جلد خروف. وادعىٰ عدد من الكتاب أن كثيراً من الثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة قد أعيد تفسيره بالكامل في بلاد أُخرىٰ حتى إنَّها فقدت شخصيتها الأمريكيَّة الخاصة وأَصبحت جزءاً من ثقافة تلك البلاد بصورة ناجعة. وهذا صحيح إلىٰ حد ما. لكن جماهير بلغراد الذين ألقوا بالقمامة علىٰ محل ماكدونالدز ورفعوا لافتات «أوقفوا كولا الناتو» بأسلوب الشعار المألوف نفسه لهذا المشروب في أعقاب قصف الناتو لمدينتهم، قدموا دليلاً دراماتياً علىٰ أَنَّه في نهاية اليوم وخاصة في فترات الأزمات، لا أحد ينسى مصدر الوجبات السريعة والأزياء والأفلام[62].

الخاتمة

في أوائل القرن الحادي والعشرين لدينا عالم ذو درجة عالية جداً من الوعي الثقافي المتبادل والآني أكثر من ذي قبل، والذي جعل هذا ممكناً التطورات التكنولوجية غير الطبيعية التي أعطتنا عصر المعلومات الإلكترونية في القرن العشرين والحادي والعشرين. لكن العولمة الثقافيَّة، وهي سلسلة ظواهر عمرها آلاف السنين، لم تؤد إلىٰ تجانس ثقافي بل علىٰ العكس إلىٰ عملية أكثر تعقيداً من التبادل يمكن أن تسمى بأسماء متنوعة كالتهجين أَو العولمة المحلية glocalization وما شابه. لم تكن الولايات المتحدة، وهي ربما كانت الدّولة الأكثر تهجيناً علىٰ الكوكب، تعيد صناعة العالم في صورته خلال هذه الفترة، بل كانت تقوي وتحافظ علىٰ وضع متفوق كمنتج وحيد للثقافة المعدة لإستهلاك العالم كلّه.

إن النتيجة الثقافيَّة هي نشر عناصر من الإيديولوجيَّة الأمريكيَّة ونمط معيشتها التي تعطي جماهيرها المتباينة في جميع أنحاء الأَرض إحساساً إدراكياً

بالاتصال الآني مع الولايات المتحدة. هذه المبيعات السائدة للطريقة الأمريكيَّة تعطي الولايات المتحدة بلا شك فوائد القوة اللينة التي وصفها ناي Nye، ويحتمل أنَّها ستستمر في فعل ذلك إلاَّ إذا رأت بقية العالم في الولايات المتحدة تهديداً مستمراً للاستقرار العالمي. ولكن يجب ألا نذهب بعيداً في افتراض تأثير التنويم المغناطيسي أَو تأثير تحول الثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة، فكثير من شباب الميليشيات في يوغوسلافيا السابقة مثلاً شاركوا في المذابح العرقية، وهي فعاليات غير أمريكيَّة أبداً، بينما كانوا يلبسون الجينزات الزرق (ليڤايز Levis) وأحذية (نايكي Nike). وكلما أَصبح العالم «مرتبطاً» أكثر فأكثر، فإن إدراك الثقافة الأُخرىٰ والتبادل معها سوف يتزايد دون شك. ولكن قد نحتاج إلىٰ تطوير جائح لمشهد الغزو من المريخ الذي قاله رونالد ريغان Ronald Reagan نصف مازح (والذي أكد أَنَّه سيجعل الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي يضعان خلافاتهما جانباً) لتأمين قوة جاذبة إلىٰ المركز لصنع «ثقافة عالميَّة» واحدة. وسوف يبقى العالم مكاناً أكثر متعة في غياب أهل المريخ.

ملاحظات

(1) جون توملنسن John Tomlinson، «Globalization and Culture» (University of Chicago Press, 1999)، ص 1.

(2) هذا القلق والأمل لحلها تجسدا في خطاب الرئيس جون ف. كيندي في حزيران 1963 في الجامعة الأمريكية، الذي ألقاه في أعقاب أزمة الصواريخ الكوبية والذي صرح فيه: نحن (الولايات المتحدة والاتحاد السوڤياتي) ندور في دائرة مفرغة وخطيرة التي يولّد الشك فيها في طرف شكاً في الطرف الآخر، كما يولد السلاح الجديد سلاحاً آخر. إذا كنا لا نستطيع حل خلافاتنا، أو المساعدة علىٰ جعل العالم آمناً بالتنوع علىٰ الأقل. لأنه بالتحليل النهائي، فإن الرابطة المشتركة والأساسيَّة أننا جميعاً نعيش علىٰ هذا الكوكب الصغير. وكلنا نتنفس نفس الهواء. وكلنا نرعىٰ مستقبل أطفالنا. ونحن جميعاً إلىٰ فناء. «اقتبست من بيرنارد أ. فايسبرغر (Bernard A. Weisberger) من كتابه «Cold War, Cold Peace, The United State and Russia Since 1945,» (American heritage Press, 1985) ص 227.

(3) ماكس ڤيبر (Max Weber)، (The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism) ترجمة: تالكوت بارسن (Talcott Parsons).

وراجع المقدمة، راندل كولنز (Randall Collins) الطبعة الثانية Roxbury (Roxbury, 1998).

(4) يوغيش آتال «One Word, Multiple Cultures» (Yogesh Atal) في كتاب من إعداد جان سيرفاس (Jan Servas) وريكو لاي (Rico Lie)
«Media and Politics in Transition: Cultural Identity in the Age of Globalization,» (Leaven, Belgium: Acco, 1997) ص 20.

(5) راي لورانس (Ray Laurence) وجون باري (Joan Berry)
«Cultural Identity in the Roman Empire,» (Routledge, 1998)، فصل 1 وأماكن أخرى.
وللتأكد يستطيع المرء أن يجد مدناً تحوَّلت إلىٰ رومانية بالكامل مثل لنديتيوم في بريطانيا، ولوغدونوم في فرنسا. وأكثر من ذلك إن التحويل إلىٰ روماني في وسط إسبانيا بعد سلسلة من الحروب الوحشية في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد يقدم مثالاً حيّ علىٰ قدرة روما علىٰ اقتلاع معطيات الثقافة المحلية التي كانت تعتبرها تهديداً لسيطرتها.
وج. ب ف. دي بالدسن (J. P. V. D. Baldson)، «Romans and Aliens», (London, Gerald Duckworth & Co. 1997) ص 60، 64 ـ 65؛
دونالد ر. دادلي (Donald R. Dudley)، «The Romans 850 B. C. - A. D. 337» (Alfred Knopf, 1970)، ص 61 ـ 62.

(6) جان نيديرڤين بياتريس (Jan Nederveen Pieterse)، «Globalization as Hybridisation»، مجلة International Sociology (حزيران 1994) ص 169.

(7) آرجون أبوراداي (Arjun Appuradai)، «Modernity at Large: Cultural Dimension of Globalization» (University of Minnesota Press, 1996)، ص 11.

(8) رونالد روبرتسون (Ronald Robertson) «Globalization: Social Theory and Global Culture,» (London: Sage Publication, 1992) ص 6.

(9) مروان م. كريدي (Marwan M. Kraidy)، «The Global, The Local, and the Hybrid: A Native Ethnography of Globalization,» Critical Studies in Mass Communication (كانون الأول 1999) ص 472.

(10) آتال «one World» (Atal) ص 22.

(11) ألبرت حوراني (Albert Hourani)، «A History of the Arab Peoples,» (Harvard Belknap Press 1991) ص 7 ـ 9 و201 ـ 202.

(12) جارد دياموند (Jared Diamond)، «Guns, Germs and Steel: The Fate of Human Societies,» (Norton, 1997) ص 35 ـ 41.

(13) لمراجعة حديثة عن الخط المشوش بين الخيال والحقيقة في النقاش الحالي حول الاتصالات بين الشرق والغرب قبل رحلة كولمبوس في أمريكا. راجع مارك ك. ستينجل (Mark K. Stengel) «The Diffusionists Have Landed» ـ في مجلة Atlantic Monthly عدد كانون الثاني 2000 ص 35 ـ 48.

(14) جون هـ. ماركس (John H. Marks) «Visions of One World: Legacy of Alexander» (Four Quatret Pub. Co., 1985) ص 69. وانظر أيضاً ايريك إس غرون (Erich S. Guren) «The Heltenistic World and the Coming of Rome», vol. 2 (University of California Press, 1984).

(15) ماركس (Marks)، «Visions of One World». وكذلك غرون «The Hellenistic» (Gruen).

(16) ما يسمى بطريق الحرير (أطلق التسمية في نهاية القرن التاسع عشر الجغرافي الألماني والجيولوجي فردناند ريشتوفن (Ferdinand Richthofen) «لم يكن طريقاً واحداً، بل طرق كثيرة؛ كان في الحقيقة شبكة طرق تذهب عموماً إلىٰ الشرق والغرب ولكن برغبة إلىٰ جنوب إيران، السهل الشمالي الفارسي (Furasian)، وجنوباً إلىٰ كوش الهندوسية إلىٰ شبه القارة الهندية).

ريتشارد سي فولتز (Richard C. Foltz) «Religions of the Silk Road: Overland Trade and Cultural Exchange from Autiquity to the Fifteenth Century,» (St. Martin's, 1999) ص 1 و2 وأماكن مختلفة.

(17) فولتز (Foltz) وديڤيد ليرنر (David Lerner) وهانز سبير (Hans Speir) «Religions of the Silk Road» ص 6 ـ 7.

(18) هارولد لاس ويل (Harold Lasswell)، إعداد: «Propaganda and Communication in World History», Vol. 1: «The Symbolic Instrument in Early Times» (University Press of Hawaii, 1979) ص 10 ـ 11.

(19) من الفرصة المؤاتية الرومانية، قسمت مصر إلىٰ منطقتين، الإسكندرية اليونانية اليهودية، وأراض داخلية شاسعة سكنها المصريون الأصليون.

بالسدون (Balsdon)، ص 68 ـ 69 «Romans and Aliens».

(20) حوراني (Horani)، ص 26 ـ 29، «A History of the Arab Peoples».

(21) من أجل وضع اليهودية المنافس في العالم الروماني قبل القرن الخامس الميلادي، راجع مثلاً: كينان ت. إيريم (Kenan T. Erim)، وجويس رينولدز (Joyce Reynolds) وروبرت تانينبوم (Robert Tannenbaum)، إعداد

«Jews and Good-Fearers at Aphrodisia: Greek Inscriptions With Commentary -- Texts from the Excavations at Aphrodisia» (Cambridge, U. K. Philogical Society, 1987)

جوديث ليو (Judith Lieu) وجون نورث (John North) وتيسا راجاك (Tissa Rajak) إعداد

«The Jews among Pagans and Chritians in the Roman Emprie», (London: Routledge, 1994).

(22) يضع المحلّلون للاتصالات هارولد لاس ويل وديڤيد ليرنر وهانز سبير اختراع غوتنبرغ كان «ربما أكثر أهمية في تاريخ البشرية من الحدث الجغرافي الذي صادف كولمبوس. لأن الطباعة المنقولة مكّنت انتشار القراءة والكتابة التي أنتجت شعار الثلاثة 'reading, (R) riting, rithmetic' ـ القراءة الكتابة والحساب ـ التي أصبحت السِّمة المميزة للحضارة الغربية ويمكن أن تصبح فرضية بقاء الإنسان علىٰ هذا الكوكب».

لاس ويل ولينر وسبير، ص 16، «Propaganda and Communication».

(23) ديامونـد (Diamond) ص 372 ـ 73 «Guns, Germs and Steel». طبعاً لم تكن تقنية بناء السفن بحد ذاتها العامل الحاسم في الدافع للتجول علىٰ الكوكب. كانت الصين متقدمة في تطوير السفن بمدىٰ عبر القارات في أوائل القرن الخامس عشر، أسطول الأميرال تشين هو غامر حتى زنجبار في رحلته العاشرة فيما بين 1405 و1433. لكن الصِّين قرَّرت

منع بناء السفن الكبيرة والتخلي عن الاكتشافات ومتابعة التجارة الخارجية. كما يلاحظ المؤرخ پول كينيدي (Paul Kennedy) سفن تشن هو «كان من الممكن أن تبحر حول إفريقيا «وتكتشف» البرتغال قبل بضعة عقود من بدء بعثات هنري البحار بالاندفاع إلى جنوب سيوتا». بول كينيدي، The Rise and Fall of the Great Powers: Economic Change and Military Conflict from 1500 to 2000 (Random House, 1987) ص 6 ـ 7.

(24) ستيفن كيرن (Stephen Kern)، «The Culture of Time and Space, 1800-1918» (Harvard University Press, 1983).

(25) نفس المصدر، الفصل 3.

(26) ستوارت هال (Stuart Hall) في كتاب من إعداد آ. د. كنغ (A. D. King)، «The Local and the Global: Globalization and Ethnicities,» «Culture, Globalization and the World System» (London Macmillan, 1991) ص 19 ـ 31.

(27) تحتفظ فرنسا بحضور ثقافي عالمي هام، أولاً في الدول الناطقة بالفرنسية وأشباه الدول (مثل كيوبيك)، لكن امتدادها محدود بالعالم الناطق بالفرنسية، وعطاءاتها (كما يلاحظ في النص التالي) ليست جذّابة على المستوى الشعبي بالمقابلة مع جماهير النخبة.

(28) مارتن و. لافورس (Martin W. Laforce) وجيمس آ. دريك (James A. Drake)، «Popular Culture and American Life: Selected Topics in the Study of Popular American Culture (Nelson - Hall, 1981) ص viii.

(29) بيرنارد بيلين (Bernard Bailyn)، «The Peopling of British North America: An Introduction»، (Vintage, 1985) ص 95 ـ 97.

(30) إعداد روب كوريس وآخرون، (RobKores)، «Questions of Cultural Exchange: The NIAS Statement on The European Reception of American Mass Culture,» in 9Rob Kores). «Cultural Transmissions and Reception: American Mass Culture in Europe,» (Amesterdam: VU University Press, 1993) ص 323.

(31) برنارد بيلين وآخرون (Bernard Bailyn)، «The Great Republic: A History of the American People,» 4th ed. (DC Heath, 1992) ص 229.

(32) انظر مثال ماديسون غرانت (Madison Grant) «The Passing of the Great Race: Or, the Racial Basis of European History», (Charles Scribner, 1916).

(33) مثلاً السينمائي المغولي صاموئيل غولدوين (Samuel Goldwyn)، (صاموئيل غيلبفيس) من وارصو، طفل لوالدين يهوديين أمضى سنيه الأولى في أمريكا كبائع قفازات قبل أن يدخل في صناعة سينما الأطفال، لم يكن على دراية بالفن العالي، لكنه هو وزملاؤه عرفو أذواق الأمريكيين المتوسطين وكذلك كان لديهم شهية لا حدود لها للمال لإرضاء هذه الأذواق. انظر مثلاً، آ. سكوت بيرج «Goldwyn» (Knopf, 1989) (A. Scott Berg)، وكذلك نيل غابلر (Neal Gabler)، «An Empire of Their Own: How the Jews Invented ollywood» (Crown, 1988).

(34) ويل هيس بابرز، 11 (Will Hays Papers, 11)، بكرة 19 إطار 1167، مقتبس في جون ترمبور (John Thrumplour)، «Death to Hollywood: The Politics of Film in the United

States, Great Britain Belgium and France, (1920-1960)» Ph. D. dissertation, Harvard University, 1996, P. 25.

(35) وليام ريد (William Read)، «America's Mass Media Merchants (John Hopkins University Press, 1976) P. 9.

(36) إيميلي روزنبرغ (Emily Rosenberg)، «Spreading the American Dram: American Economic and Cultural Expansion, 1890-1945» (Hill and Wang, 1982), Chap. 5.

(37) أسست الحكومة الفرنسية (Alliance Française) في سنة 1883، وأسّست إيطاليا (Societé Dante Alighieri) في سنة 1889، وأسّس الألمان (Goethe Institut) مما يدعو للسخرية في سنة 1932 قبل تولي النازية ببضعة أشهر، والبريطانيون أسّسوا (British Council) في 1934.

(38) من أجل فترة الحرب، انظر مثلاً روزنبرغ، وكذلك كوستى غليولا (Costigliola)، «Awkward Dominion: American Political, Economic and Cultural Relations with Europe», 1919-1933 (Cornell University Press, 1984) Chaps. 5

وكذلك إيان جارفي (Ian Jarvie)، «Hollywood's Overseas Compagn: The North Atlantic Movie Trade, 1920-1959 (Cambridge, U. K. (Cambridge University Press, 1992)؛ ولفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية انظر مثلاً: جارفي وترمبور Death To Hollywood؛ الفصل 3 (Hollywood's Overseas Compaign)

وبول سوان (Paul Swan) «The Little State Department: Washington and Hollywood: Rhetoric of the postwar Audience.

في كتاب من إعداد ديفيد ايلوود (David Ellwood) وروب كريس (Rob Kroes) «Hollywood in Europe: Experience of a Cultural Hegemony», (Amesterdam: VU University Press, 1994).

(39) نيستور كارسيا كانكلني (Nestor Garcia Canclini)، «North Americans or Latin Americans? The Definition of Mexican Identity and the Free Trade Agreements,» في كتاب من إعداد:

ايملي ج ماكاناني (Emily G. McAnany) وكنتون ت، ولكنسون (Kenton T. Wilkinson)، «Mass Media and Free Trade: NAFTA and the Culture Industries,» (University of Texas Press, 1960) ص 149 ـ 150.

(40) بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، العاملون في صناعة الفيلم في الولايات المتحدة كانوا يخدمون في القوات المسلحة، قدموا جهداً لمنع صناعة الفيلم في دول المحور، وخاصة ستوديو أوفا الألماني، من الرجوع والوقوف على أقدامها لأسباب أيديولوجية. لكنهم في الواقع أعاقتهم حكومة الولايات المتحدة من تنفيذ خطتهم بالكامل، راجع مثلاً إيان جارفي «Free Trade as Cultural Threat: American Film and TV Exports in Post-War Period» (Steven Ricci)، «Hollywood and Europe: Economics, Culture, ص 37 ـ 38، National Identity 1945-95», (London: BFI Publishing, 1998).

(41) ماكاناني وويلكينسون، «Introduction» في كتاب ماكاناني وويلكينسون ـ إعداد.

Mass Media and Free Trade», Page 3, 7;
وكذلك كارسيا كانكليني في كتاب ماكاناني وويلكينسون ص 149 ـ 154.
وريتشارد بيلز (Richard Pells)، «Not Like US: How Europeans have loved, Hated and Transformed American Culture since World War II», (Basic Books, 1997) p. 273 - 77.
لقد خسر كانتور المفاوضات حول الصادرات الأمريكية الثقافية دون قيود إلىٰ المشاركين في الغات، لكنه خاض معركة قاسية قبل أن يستسلم.

(42) جيفري نويل سميث (Geoffery Nowel-Smith)، «Introduction» في كتاب من إعداد نويل سميث وريتشي: ص 6، «Hollywood and Europ».

(43) بيلز «Not Like US» (Pells) ص 210 ـ 211، و227.

(44) روزنبرغ، «Spreading the American Dream»، ص 100.
لم يبتعد تحليل روزنبرغ عن تأكيدات هيئة السينما الأمريكية بخصوص سر السينما الأمريكية الفريد في النجاح العالمي. ومقابلة المؤلف لنائب رئيس الهيئة (MPEA) السيد س. فريدريك غرونيش، 7 تشرين ثاني 1995.

(45) المؤرخة الثقافية فيكتوريا دي غرازيا (Victoria de Grazia) تقارن النماذج الأمريكية والأوروبية في إنتاج السينما في فترة الحرب: «وقفت السينما الأمريكية للاقتصاد الكبير والتكنولوجيات المعتمدة علىٰ رأس المال وعلىٰ التقييس، وفضلت القصص التي فيها حركة وركّزت علىٰ النجم وانتقلت إلىٰ جمهور من مختلف الطبقات. والمروجون لها محترفون تشكلوا خارج المراكز التقليديّة للثقافة، وهم علىٰ علم وثيق بمشكلة تسويق منتجاتهم. بالمقابل يعرف التقليد الأوروبي باستوديوهات فنية لامركزية وترتبط بتقاليد المسرح والدراما وموجهة إلىٰ الجماهير المعرفة جيداً». دي غرازيا «ثقافة الجماهير والسيادة» في مجلة «Journal of Modern History» (آذار 1989) ص 61. وكانت وجهة نظرها لا تقل صحة في فترة ما بعد الحرب أيضاً. ففي الثمانينيات والتسعينيات اشترى روبرت موردوك (Rupert Murdoch) وهو أسترالي يقيم إدارته الرئيسية في بريطانيا مختلف فروع فوكس كوربوريشن، واشترت EMI البريطانية كابيتول ريكوردز، وحصلت بيرتلزمان الألمانية علىٰ البانتام ودبل دي وديل بابليشر أيضاً علىٰ نادي الكتاب ليتراري غيلد. Pells, Not Like US ص 320 ـ 321. وجدير بالملاحظة أن روبرت مردوك حصل علىٰ الجنسية الأمريكية، وبرتلزمان وهو الرئيس التنفيذي لتوماس ميدلهوف أشار إلىٰ نفسه في خطاب في 1999 بجامعة هارفارد ـ مدرسة كينيدي للحكومة بأنه «أمريكي بجواز سفر ألماني» فأثار السؤال إن كانت الملكية الأجنبية لوسائل الإعلام الأمريكية تنتج بكل بساطة (الكلب الذي يهز ذيله).

(46) إضافة إلىٰ الروس الذين لفترة طويلة أثاروا اهتماماً كبيراً في هذا الجنس الفني:
إسماعيل ميرشانت «Kitshy as Ever, Bolywood Is Branching Out» (نيويورك تايمز عدد 22 تشرين ثاني 1998 القسم 2، الصفحة 15). يجب ملاحظة أن المجتمع الهندي الغريب يؤلف جمهوراً عريضاً ـ مثلاً في 1998 واحد من أفلام بولي وود (Dil Se) أصبح أول فيلم هندي يصل إلىٰ قائمة العشرة الأوائل في بريطانيا. وتبع نجاح Dil Se نجاح Kuch Kuch

Hota Hai الذي اشتمل على مشاهد صورت في إسكتلندا «Planet Bollywood» في Marketing Week، لندن 18 آذار 1999، ص 35.

(47) يشرح محلل وسائل الإعلام الإعلامي جيريمي تانستول (Jeremy Tunstall): «تحتوي الإنكليزية تنوعاً أكبر من عبارات بليغة وكلمات بسيطة يمكن أن تختار منها (إذا قورنت بالفرنسة مثلاً) والنسخة الإنكليزية هي عادة أقصر من النسخة بأي لغة أُخرىٰ» وللإنكليزية قواعد أبسط من أي لغة منتشرة، الإسبانية فيها 14 زمناً منفصلة مثلاً مقابل 6. ويقترح تانستول، «الإنكليزية لغة مناسبة جداً لنصوص كوميكية، وعناوين، جمل أولى طريفة، تمسك بالصورة، وتسجيل وترجمة وأغاني شعبية، إعلانات طرقية، مزاح عامل الموسيقى والأسطوانات، ومضات الأخبار، إعلانات مغناة». جيريمي تانستول:
«The Media Are American: Anglo-American Media in the World» (London, Constable, 1977), p. 128;
وكريستوفر كيندريس (Christopher Kendris)، «501 Spanish Verbs» 3rd ed. (Barron's, 1990) ص xx.

(48) تانستول، «The Media Are American»، ص 127.

(49) لقد سحرت كاليفورنيا وقدمت التسلية للمراقبين الأجانب؛ وأشار الصحافي الإيطالي لويجي بارزيني إلىٰ الولاية «عالم جديد نظيف حيث كل شيء سهل ومسموح، وحيث التقاليد المحرجة وأخطاء الماضي منسية، اللوح الفارغ الذي تبدأ بالكتابة عليه من جديد». وكتب كريستوفر ايشروود (Christopher Isherwood): «هناك في الخارج صباح المحيط الهادي الأبدي والكسول، تهرب الأيام إلىٰ شهور، والشهور إلىٰ سنين... قد يمضي المرء حياته... بين تثاؤبين... مستلقياً عارياً برونزياً علىٰ الرمال». كلا النصين مأخوذ من بيلز (Pells) ص 165 ـ 166 «Not Like US». وقد يكون من الممتع أن نرىٰ أن كامل مسلسل (Bay watch) يعطي السحر نفسه للمشاهدين الأجانب، وانتقل الإنتاج إلىٰ أستراليا كما كان بالأصل مقرَّراً.
«Its Economy Ailing, Hawaii Hangs Some Hopes on Hollywood» (في نيويورك تايمز، 17 أيار، 1999) ص A1.

(50) انظر مثلاً، سي. ڤ. إي بيغسبي (C. W. E. Bigsby)، «Superculture: American Popular Culture and Europe,» (London: Elek, 1975) ص 12 ـ 13.
كوستي غليولا، (Costigliola)، «Awkward Dominion»، ص 167.
وبيلز، «Not Like US»، ص 163 ـ 168.

(51) مثلاً «My Cousin Vinny»، فيلم كوميدي 1995 حول محام غير مسجل بالاتحاد من بروكلن الذي يستخدم أذكياء الشارع ليدافع عن متهم بجريمة قتل في مدينة جنوبية يرئسها قاض متخرج من ييل، كان هذا الفيلم ناجحاً جداً بالصين عندما سجل فيني المحامي البسيط ولكن الذكي بلهجة محلية والقاضي المتكبر بلغة المندرين الرسمية.

(52) في الفيلم القنبلة في الخيال العلمي في 1996، عيد الاستقلال، طائرة F-16 من القوىٰ الجوية في الولايات المتحدة تقصف سفناً حربية غريبة من السماء، وتنقذ النوع البشري.

ما هي فرصة وجود أي متحد أرضي؟ طبعاً، إن الصورة قريبة من القوة التي لا حدود لها أن ترد على النار: مثلاً: كثير من الصينيين يعتقدون بأمانة أنه مع التكنولوجيا الأمريكية المتقدمة لا يمكن أن يكون قصف السفارة الصينية في بلغراد حادثاً عرضياً.

(53) في 1995 مثلاً سعت سفيرة الولايات المتحدة إلى إيطاليا (كلير بوث لوس) أن تمنع الفيلم Blackboard Jungle من مهرجان ڤينيسيا السينمائي لأنه يصوّر طيش وتقصير المراهقين في لندن (لكنها فشلت في مسعاها).

(54) «When Its Customers Fell Ill, a Master Marketer...»، نيويورك تايمز، 30 حزيران 1999، ص A1.

(55) برنارد بيلين، «The Origins of American Politics» ـ (Vintage Books, 1968)، فصل 1.

(56) «Net of Fame: Who Rules the Web? Pamel A. L,»
في وول ستريت جورنال 14/ 4/ 199 ص «The B-Movie Actress» A1.

(57) صرح جوزيف غوبلز في 1940، «يجب أن نعطي الفيلم الألماني واجباً ومهمة حتى يمكننا استخدامه في التغلب على العالم. وعندئذ فقط سنغلب أيضاً الفيلم الأمريكي». اقتباس من إيريك رينتشلر، «The Ministry of Illusion: Nazi Cinema and Its After life» (Harvard University Press, 1996) ص 215.
جوزيف ستالين ذكر صراحة «إذا استطعت السيطرة على وسيلة الفيلم الأمريكي، فلن أحتاج إلى شيء آخر لأحول العالم بأجمعه إلى الشيوعية». اقتباس ترمبور «Death to Hollywood» ص 4. وحديثاً مدح الرئيس الصّيني جيانغ زيمين فائدة الفيلم Titanic، بأنه ضربة في شباك التذاكر في الصين، واللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي تعلن «دعونا لا نفترض أننا لا نستطيع التعلم من الرأسمالية»، الغارديان 27 نيسان 1998، ص 10.

(58) بالطبع، بدون وصول إلى وثائق ديزني الداخلية حول الموضوع، لا يمكننا أن نتأكّد تماماً بأن مولان قد أنتج لتطييب خاطر حكام الصّين الذين أصابهم أذى. ولكن هناك ترابطاً ما بين غضب بكين من كوندون واختيار ديزني موضوع فيلمه التالي.

(59) نيل م. روزيندروف (Neal M. Rosendorf)، «A Study in International Character and Influence of Hollywood: The Life and Times of Samuel Bronston, Epic Film Producer» (Harvard University, 2000) أطروحة دكتوراه (فصل 6 ـ 9).

(60) الذي أعطى إنتاجات هوليوود مثل «Force 10 From Navaron» 1979 بطولة هاريسون فورد وروبرت شو، والذي صوّر بصورة غير صحيحة، اليوغسلاف الموالين للملكية، ومجموعات مقاومة الشيوعية (Chetnik)، كمتعاونين مع النازية خلال الحرب العالمية الثانية، وهذا انعكاس لقائد الحزب السابق تيتو وحملات الدعاية الطويلة ضد منافسيه أثناء الحرب.

(61) جوزيف س. ناي الابن، «The Power we must not Squander»، في نيويورك تايمز 3 كانون ثاني 2000، ص 19. من أجل وصف كامل للقوة اللينة كمفهوم، انظر جوزيف ناي الابن،

«Bound to Lead: The changing Nature of American Power» (Basic Books, 1990)، ص 31 ـ 33 و 190 ـ 95.

(62) انظرْ مثلاً توماس ل. فريدمان، «The Lexus and the Olive Tree: Understanding Globalization» (Farrar, Straus, Giroux 1999)، فصل 10.

وفيه يكرر بحماسة، «Golden Arches Theory of Conflict Resolution» التي قالها أول مرة بتحفّظ نوعاً ما في 1996: ما من دولتين دخلتا الحرب لأن كلاهما كسبتا محلاً بترخيص ماكدونالدز. انظر أيضاً جيمس واطسون (James Watson)، Golden Arches East: McDonald's in East Asia (Stanford University Press, 1997);

توم أوريغان (Tom O'Regan)، «Too Popular by Far: On Hollywood's International Reputation» (Continuum, vol. 5, No. 2, 1992).

بيلز (Pells) «Not Like US».

وريتشارد كويسيل (Richard Kuisel)،

«Seducing the French: The Dilemma of Americanzation» (University of California, Press, 1993).

obeikandl.com

6

فيكتور ماير شونبرغر
Viktor Mayer -Schönberger
ديبورا هيرلي
Deborah Hurley

عولمة الاتصالات

لقد أَصبحت «ثورة الاتصالات» عبارة تتردَّد في كل مكان. والإشارة إلىٰ قوتها كعامل عولمة شائعة إلىٰ حد الابتذال. ولكن هل ثَمَّةَ ثورة للاتصالات العالميَّة حقاً؟ وإذا كانت كذلك، فلماذا وإلىٰ أي مدىٰ؟ بالنسبة للفيلسوف كارل بوبر Karl Popper، إن القدرة علىٰ الاتصال هي في أساس «تكوين الإنسان»[1]. ليست الاتصالات الإنسانية أساسية فحسب، لكنها وفيرة أيضاً. فنحن نستطيع استخدام حواس متنوعة لتبادل أفكارنا في ما بيننا. وبمساعدة وسائل الاتصالات نستطيع أن نوسِّع مدىٰ الاتصال في المكان والزمان لنتبادل الأفكار عبر المسافات وخلال العصور. بهذا المعنى الواسع، وهو المعنى المقصود في هذا الفصل، ليست الاتصالات محددة بوسيلة خاصة أَو نوع خاص من التبادل الإنساني. فهي تشتمل علىٰ كل نقل للمعلومات سواء كانت هذه المعلومات محكية أَو مكتوبة أَو مرسومة أَو مؤداة، وسواء كانت منقولة بواسطة وسيلة مماثلة أَو رقمية، وسواء يجري بثها بأشكال تقليديَّة كالرسائل والكتب أَو بواسطة الكومبيوتر أَو الهاتف أَو أي جهاز اتصالات آخر.

كان اختراع الرسم والكتابة أول أشكال هذه الاتصالات المتوسطة. وبرهنت على أنها وسائل قوية تجاوزت حدودنا الزمانية والمكانية. فسمي ظهور الكتاب «ثورة» كما سمي اختراع الراديو والتلفزيون[2]. وكان للوسائل الثلاثة آثار اجتماعيَّة عميقة تجاوزت الحدود القومية. وانتشرت ثورة الطباعة كالنار في أوروبا في نهاية القرن الخامس عشر. قبل الملوك وسيلة الاتصالات الجديدة بالقدر الذي حاولوا تنظيمها. وكانت الكتب بالنسبة لبنديكت آندرسون Benedict Anderson، سيما الصحف، شروطاً مسبقة لازمة لتوحيد الممالك وتأسيس دولة الأمة لأنَّها تعطي الوسائل التي يتمكن المواطنون بواسطتها من التواصل وبذلك يطورون معنى للشعب والمجتمع[3]. وبصورة مماثلة، وُصف الراديو والتلفزيون بأنَّهما أدوات لتأسيس «القرية العالميَّة» التي قال بها مارشال ماك لوهان Marshal McLuhan من خلال اتصالات لا تعيقها الحدود[4].

من منظور التطورات الجارية في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات إنَّها مجرد رموز «لثورة اتصالات» أُخرى تجعل تبادل الأفكار والمعلومات عالمياً كما فعلت الكتب والراديو والتلفزيون واختراعات الاتصالات من قبل. لكن بعض الخصائص الجوهرية المعينة والفريدة لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات الجديدة تشير إلى أن «ثورة الاتصالات» هذه مختلفة عن الثورات السابقة.

خصائص تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الجديدة

نركِّز في ما يلي على أربع من أهم الخصائص الفردية لشبكات المعلومات والاتصالات الجديدة.

ـ التحويل إلى أرقام Digitalization

منذ الرسوم الأولى على جدران الكهوف إلى الكتب المطبوعة والسينما والهاتف والتلفزيون، كانت كل وسيلة معينة تعيق قناة الاتصال التي أوجدتها لنموذج معين ولنوع معين من الرسائل، فالرسوم تُرى ولا تُسمع، والهاتف للحديث الذي لا يُرى، والسينما لا يمكن الشعور بها. فهذا القصور الداخلي

أجبرنا على استخدام عدد من الوسائل المتنوعة لتناسب الأنواع المختلفة والكثيرة من الاتصالات الإنسانية.

التحويل إلى أرقام يغير هذا. فتحويل المعلومات إلى رموز ثنائية عالميَّة، يمكن لأي نوع من الاتصالات أن يُعالج من خلال الزمان والمكان بالوسيلة نفسها ويتم بثها من خلال البنية التحتية. فالنصوص والرسوم والصور والأصوات والخطاب وأنواع كثيرة أُخرى من المعلومات عندما يتم نقلها إلى رمز ثنائي تصبح قابلة للبث في شبكات رقمية. وحيث إن أنواعاً مختلفة من المعلومات يمكن أن تُرسل في الشبكة الواحدة ذاتها فإن كثيراً من استعمالات المعلومات والاتصالات المتميزة تقليدياً تهاجر من الشبكات المكرسة لها إلى هذه الشبكة العالميَّة، وهذا التطور يسمى «الالتقاء Convergence». إن هذه الشبكات الرقمية تقسم الأصناف التقليدية للشبكات: فواحد إلى واحد (كالهاتف والرسالة)، وواحد إلى كثيرين (التلفزيون). وبالنسبة لنيقولاس نيغروبونت Nicholas Negropoint إن التحول إلى أرقام تطور أساسي حتى إنَّه سمى كتابه «التكوين الرقمي»[5].

إن الرمز الرقمي العالمي أهم الخصائص الفردية لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات «الجديدة». فهي تسمح ببناء شبكات، ليست مصمّمة لتدفق نوع معيَّن من المعلومات لكنها تبقى مفتوحة ومتكيفة مع أي استخدام ممكن في المستقبل. وما كان للتحول الرقمي أن يكون عملياً بدون تكنولوجيات معلوماتية قوية لنقل تدفقات المعلومات من وإلى الرموز الرقمية. وحيث إن التحول الرقمي شرط مسبق نظرياً، فإن الزيادات الكبيرة في معالجة المعلومات هي الضرورة العملية لبناء شبكات للاتصالات موحدة ورقمية وشاملة.

معالجة المعلومات

إن التطور في استطاعة وقوة معالجة المعلومات منذ الأيام الأولى للدارات المدمجة في الستينيَّات حتى القرن الحادي والعشرين لم يكن ينقصها

شيء لتكون مثيرة ومدهشة. ففي سنة 1965 نشر مهندس شاب، غوردن مور Gordon Moore، وهو الذي شارك في ما بعد بتأسيس شركة إنتيل INTEL، أكبر منتج في العالم للمعالجات، مقالة من أربع صفحات تنبأ فيها أن استطاعة المعالجات في المعلومات سوف تتضاعف كل ثمانية عشر شهراً بينما تتناقص كلفة وقوة الاستهلاك بسرعة مماثلة[6]. وسمي هذا «قانون مور» ولا يزال التنبؤ فيه صحيحاً. فاليوم أَصبحت سرعة الكومبيوتر أكبر من سرعته في سنة 1965 بملايين المرات. وتنبأ الخبراء بأن سرعة وقوة المعالجة سوف تستمر تتضاعف علىٰ الأقل كل ثمانية عشر شهراً، حتى نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. وعندئذ سيحل محل معالجة المعلومات بمفاتيح من السيليكون للتيار الكهربائي برمجيات بصرية أَو حيوية، ولكن بحسب ما نعرفه اليوم سيبقى قانون مور صحيحاً، أَو يتم تجاوزه بزيادات أكبر. تؤمن معالجة المعلومات القدرة علىٰ تحويل المعلومات الغزيرة إلىٰ رموز رقمية ومن ثم تعاد إلىٰ أشكال يستوعبها الإنسان، وبذلك يجعلها تُعالج وتنقل عبر شبكات رقمية. ويشجع علىٰ هذا التطور التقدم في التخزين والعرض. ففي الثمانينيّات كان القرص الصلب في كومبيوتر شخصي يخزن 20 مليوناً من حروف النص، وفي نهاية التسعينيَّات خزَّنت تلك الأقراص عشرين بليوناً من حروف النص بسعر مماثل.

عرض الموجة

يتعلق قانون مور Moor's Law بمعالجة المعطيات، تحويل أي نوع من المعلومات تقريباً إلىٰ رمز ثنائي، وسهولة استخدامها وتخزينها وإرجاعها إلىٰ نوع مماثل من تدفق المعلومات التي تستطيع حواسنا الإنسانية التقاطها. إن معالجة المعلومات بكفاءة في ملايين الكومبيوترات الشخصية أمر مفيد جداً. لكن ما يجعلها أكثر فائدة قدرتها علىٰ نقل المعلومات في كل الاتجاهات. إن نقل المعلومات المحمولة رقمياً في الشبكات، وهو المكمل اللازم لقوة المعالجة، حافظ علىٰ السرعة نفسها. وبالفعل، إن عرض موجة الشبكة ـ أي

كمية المعلومات التي يمكن نقلها في الشبكة ـ لا يتضاعف فحسب كل ثمانية عشر شهراً حسب نبوءة قانون مور لسرعة وقوة المعالجة، لكنها تصبح ثلاثة أمثال كل اثني عشر شهراً[7]. إذن تزداد سرعة المعالجة أربعة أضعاف كل ثلاث سنوات، وتزداد سرعة البث (النقل) سبعاً وعشرين ضعفاً. ويتوقع الخبراء أن تستمر الزيادة السنوية في عرض الموجة ثلاثة أمثال في السنة خلال 25 سنة المقبلة على الأقل. وسمي هذا التنبؤ بقانون جيلدر Gilder's Law، وأعطي مركزاً مساوياً لقانون مور[8]. إن التخزين الرقمي رخيص جداً وعرض الموجة متوافر جداً مما حدا بصانع كبير للكومبيوترات أن يعلن في أوائل سنة 2000 أنَّه سيعطي كلاً من زبائنه، الذين يزيدون عن 30 مليوناً، تخزين قرص مجاني يبلغ 20 مليون حرف بواسطة مخدميه الذين يمكن الوصول إليهم عبر الإنترنت لاستخدام التخزين المؤقت، أو النِّظام الداعم، أو المشاركة بالمعلومات[9].

المعايير ولامركزية الهندسة

لقد أوجدت عالميَّة الرمز وقوة المعالجة ذات السرعة المتزايدة وعرض الشبكة التربة الخصبة للخاصة الرابعة لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات. فقد سمحت للمهمات المنطقية الرمزية لإرسال وتلقي المعلومات لأن تصبح جزءاً من البنية التحتية للاتصالات، الشبكات، نفسها. من الناحية التاريخية، بني كثير من شبكات الاتصال حول وحدات تنظيمية مركزية. فقد كُتبت الصحف وتفندت وطبعت في مكان واحد واعتمدت على شبكة توزيع محيطية. وتم التحكم بالهاتف من مفاتيح مركزية أو إقليمية أو محلية تملكها وتشغلها شركة الهاتف. والتلفزيون الأرضي كان بالأصل ينتج ويبث من موقع واحد. وشبكات التلفزيون، مثل شبكة الهاتف، تديرها شركة التلفزيون، أو شركاتها الفرعية وشركاؤها.

لقد تمَّ بناء أكثر الشبكات نجاحاً، الإنترنت، على نمط مختلف كلياً. فشبكة الإنترنت لامركزية بتعريفها على الأقل، وذلك بسبب المعايير واتفاقيات

الاتصالات التي تستخدمها. فقد بنيت على فَرَضية أن كافة عناصر الشبكة، مهما يكن من يملكها ويشغلها، سوف تعمل معاً لتقوم بوظائفها دون انقطاع. فإن أخفق أحد عناصر الإنترنت، فإن اتفاقيَّات الإنترنت مصممة لأن تجد طرقاً تدور حول العنصر المخفق وتعيد تدفق المعلومات بالدوران حول نقطة المشكلة. ولقد أَصبح دمج هذا الدوران الذكي في الشبكة ممكناً بسبب قوة المعالجة المتوافرة لملايين المستخدمين، والزيادات في عرض الموجة الناتج عن التقدم في تكنولوجيا البث، خصوصاً، ولكن ليست محدودة بالألياف البصرية. من الناحية الفنية يتطلَّب تخفيف التحكم المركزي بشبكة الاتصالات، كما هو الحال بالإنترنت، إضافة وسائل عملية لتدير الشبكة نفسها وتعدل نفسها بحسب اتفاقيات الاتصالات لبناء الشبكات. الإنترنت مثال «حي» على أن تخفيف التحكم ليس مجدياً من الناحية الفنية فحسب، لكنه يعمل ويعمل بشكل جيد جداً. لكن تفويض التحكم إلى عناصر الاتصالات في بنية الاتصالات يتطلَّب أن تستخدم هذه العناصر مقياساً عاماً للاتصالات. مثل هذه المقاييس العالميَّة والقوية للاتصالات، كمقاييس الإنترنت TCP/IP، كانت عملية في عمل الإنترنت. وغالباً ما يهمل في هذا المجال الجانب أن هذه المقاييس بما فيها TCP/IP قد نشأت خارج نطاق هيئة المقاييس التي تضعها الحكومات وتسيطر عليها، وتجاوزت الحدود القومية. خلافاً لمقاييس التواتر وقوابس الهاتف والتلفزيون، إن TCP/IP ليست محددة في نطاق أقاليم جغرافية خاصة أَو لمجموعات دول[10]. لقد تبنَّاها العالم، ليس بالتصويت ضمن هيئة معايير ومقاييس رسمية، بل باختبار عملي من خلال ملايين المستخدمين للإنترنت.

سوف تؤكد هذه الإضافات على المقاييس حياة الإنترنت بصورة جيدة خلال العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، وتسمح لبلايين العناصر الجديدة (أَو العُقد) أن تُضاف إلى الشبكة[11]. إن وضع المقاييس، من الرمز الثنائي إلى مقاييس الإنترنت TCP/IP، خلق أيضاً فرصاً هائلة لاقتصاديات

المقياس لخلق وصنع عناصر البرمجيات اللينة والصلبة إضافة إلىٰ المحتوىٰ المعلوماتي المتوافر في الشبكة.

هذه الخصائص الأربعة المتضافرة ـ التحويل إلىٰ أرقام، وقوة المعالجة (قانون مور) وعرض موجة الشبكة (قانون جيلدر) وشبكات هندسة الاتصالات المعايرة عالمياً واللامركزية مثل TCP/IP ـ إذا أُخذت معاً فإنَّها تعطي شبكات المعلومات والاتصالات الرقمية الخالية شخصية تتفوق علىٰ كل التجديدات التكنولوجية السابقة. إذا كان يرمز للثورات بالتغيرات السريعة بالمقارنة مع التعديلات والإضافات التطورية، فإن التطور الحالي في مجال الاتصالات مؤهل لأن يكون «ثورة اتصالات» قوية بشكل خاص. خلافاً لتكنولوجيات الاتصالات السابقة، لا تضيف الشبكات الرقمية المدمجة إلىٰ «خلطة» الاتصالات الموجودة فحسب، لكنها تسبِّب أيضاً تحولاً كبيراً في تدفق الاتصالات من الشبكات «المكرسة» القديمة إلىٰ الشبكة العالميَّة الجديدة القائمة علىٰ معيار مقبول عالمياً. إن ربط الشبكات الرقمية سهل نسبياً بسبب رموزها العالميَّة. إن فوائد إضافة مستخدمين جدد عميقة (خارج هذه الشبكة تدعىٰ قانون ميتكالف)[12]. وبالتالي تأخذ الشبكة الرقمية شكل دافع ديناميكي داخلي نحو اتصالات عالميَّة.

كيف يمكن أن نقيس نمو الاتصالات العالميَّة ونتائجها؟ إن قياس الشبكات الرقمية واستخدامها بوسائل تقليدية يتضح أنَّه صعب بسبب الخصائص ذاتها التي بُنيت علىٰ أساسها الشبكات الجديدة بما فيها نقص الرقابة المركزية. إن أيَّة مجموعة من هذه الحقائق، إذن، يجب بالتعريف أن تبقى غير كاملة وتعتبر مع شيء من التحفظ. ولكن علىٰ الرغم من هذه الأخطاء، تقدم المعطيات المتوافرة لمحة جيدة عن اتساع وعرض ثورة الاتصالات العالميَّة الجديدة.

قياس ثورة الاتصالات العالميَّة

ثلاثة اعتبارات تقيس ثورة الاتصالات العالميَّة: مدىٰ الشبكة، وعمق المحتوىٰ، والأثر الاقتصادي. يقدم كل واحد من هؤلاء الثلاثة صورة فريدة للتطورات. فينظر مدىٰ الشبكة إلىٰ اتساع وتغير صورة الشبكة الرقمية. ويركز عمق المحتوىٰ علىٰ زيادة حجم المعلومات الممكن الوصول إليها في الشبكة. ويضيف الأثر الاقتصادي جانب الاقتصاد والأعمال علىٰ الصورة المتطورة.

مدىٰ الشبكة

تدفع شبكات الاتصالات الرقمية ثورة الاتصالات. وهي لا تأخذ مكان مثيلاتها فقط لكنها تسمح أيضاً باستمرار تكيفها مع التطور السريع الذي يحتاج إليه المستخدم.

كان التلفزيون يبث تقليدياً علىٰ أمواج الهواء، إشارة مماثلة مسيطر عليها مركزياً. ومكَّنت الكابلات أقنية مماثلة كثيرة من الوصول إلىٰ البيوت. وغيّر مجيء الخدمات الرقمية في التسعينيَّات الإعداد المماثل بصورة أساسية. وتعطي الأقمار الصناعية التي تبث إلىٰ المنازل مباشرة DTH مئات من الأقنية التلفزيونية المرمَّزة رقمياً إلىٰ ملايين البيوت، ليس في العالم المتقدِّم فحسب، بل في الدّول النامية أيضاً وبنجاح مماثل، مثل جنوب شرق آسيا والهند والصين[13]. مثل هذه الأقمار الصناعية ـ وهي تبث من أراض غير حكومية إلىٰ ملايين المستقبِلات الصغيرة والرخيصة علىٰ أسطح المنازل وتغذي بيوت الأفراد ـ تخلق شبكات اتصالات رقمية دون أن يكون للحكومة سيطرة علىٰ البنية التحتية التقليديَّة.

تظهر إحصائيات اتحاد الاتصالات العالمي ITU غير المكتملة زيادة في أعداد مستقبِلات الأقمار الصناعية في العالم ثمانية أمثال، فزادت من 4,4 ملايين في سنة 1988 إلىٰ 33,4 مليوناً في سنة 1995[14]. وبينما يستمر النمو بخطواته، تنبأت دراسة حديثة بأن مشتركي التلفزيون عن طريق الأقمار الصناعية الرقمية

سوف يزيد عن عدد مشتركي الكابلات في الولايات المتحدة في سنة 2003[15]. وفي محاولة لمجاراة هذا التحول، تنشغل إيديولوجيَّة التلفزيون بالكابل برفع شبكاتها الخاصة من وضعية المثال المركزي إلىٰ شبكة كلها رقمية الألياف البصرية وتستخدم مقاييس شبكة الإنترنت TCP/IP.

وتغلَّبت الشبكات الرقمية علىٰ الهاتف الجوَّال أيضاً. فقد نجح GSM، وهو نظام اتصالات رقمي خليوي طُوِّر في أوروبا، نجاحاً كبيراً في جميع أنحاء العالم. تسمح بنية GSM لمشتركيها باستخدام هواتفهم في أكثر من ستين دولة وذلك «بالتجول» في شبكات محلية في الخارج، وتتضافر شبكات GSM لتشكل شبكة عالميَّة من الشبكات، وهي تؤمِّن اتصالات دون انقطاع عبر الحدود. ومن خلال شبكات رقمية خليوية اتسع الهاتف الجوَّال بشكل درامي من 4,2 ملايين مشترك في سنة 1988 إلىٰ 137 مليوناً في سنة 1996[16].

وازداد العدد الكلي للمشتركين في سنة 1999 إلىٰ 400 مليون. ويتوقع أن يصل هذا الرقم إلىٰ بليون في سنة 2004 متجاوزاً بذلك عدد مشتركي خطوط الهاتف الثابت[17]. في بعض الأقاليم، مثلاً إسكندينافيا، وصل استخدام الهاتف الجوَّال إلىٰ 10٪ بالنسبة لمجموعات أعمار معينة، مع وجود كثير من الناس يملكون ويستعملون أكثر من هاتف خلوي[18].

ليس نجاح الهاتف الجوَّال مقتصراً علىٰ الدّول الصناعية، فنمور جنوب آسيا والدّول النامية وحتى الدّول المحافظة كالسعودية خصت رواج الهاتف الجوَّال برعاية كاملة[19]. يمتاز الانتقال إلىٰ شبكة الهاتف الجوَّال الرقمية بعدد من الفوائد لهذه البلاد. إنَّها توفر عليهم العملية المكلفة المتعبة في حفر الأَرض وتمديد الخطوط. وتسمح لهم ببناء شبكاتهم بشكل متزايد للتعامل سريعاً مع الطلب المتنامي بسرعة. وتدخُل المنافسة في أسواق كانت حكراً لمراكز تسيطر عليها الدّولة. إضافة إلىٰ ذلك، تمكَّنت دولة مثل بنغلاديش من خلق نافذة

اقتصاديَّة ناجحة لمشتركي الهاتف الجوَّال الذين يؤجرون خطوطهم للآخرين كي يستعملوها[20].

بواسطة هاتف GSM ليس المشتركون محددين بالاتصال الصوتي. فمن خلال لوحة المفاتيح يستطيعون إدخال نصوص رسائل قصيرة SMS وإرسالها إلىٰ مشتركين آخرين. وهذه الرسائل SMS ناجحة جداً. يرسل شخص من كل أربعة أشخاص يستخدمون الهاتف الجوال في هولندا بصورة نظامية ويستقبل نصوصاً بواسطة الهاتف الجوال، والأعداد في إسكندينافيا وألمانيا قريبة من هذه الأعداد. وبحسب تقديرات حديثة يُرسل نحو مليون رسالة تقريباً في الشهر في البلاد الناطقة بالألمانية وحدها[21]. وبصورة مماثلة يستطيع مستخدمو الهاتف الخلوي في اليابان إرسال رسومات صغيرة وصوراً محوَّلة رقمياً إلىٰ بعضهم بعضاً ـ بصورة متزايدة ـ ليس بين الأجيال الشابة فقط لكنها تمثِّل الحالة الكونية للشبكات الرقمية، كما تمثِّل الحقيقة أن كل المعلومات يمكن بثُّها من خلال الهاتف الخلوي عندما تتحوَّل المعلومات إلىٰ أرقام[22]. ثمة إضافات أُخرىٰ علىٰ مقاييس الهاتف الخلوي، مثل اتفاقية استعمال اللاسلكي WAP التي يستطيع بموجبها مشتركو الهاتف الخلوي الوصول إلىٰ بريدهم الإلكتروني أو الدخول إلىٰ الشبكة العالميَّة من خلال هواتفهم الجوَّالة. تقدر شبكات الهاتف الخلوي، مثل نوكيا Nokia، أنَّه في سنة 2003 ستتوَّلد دخول الخلوي بالكامل تقريباً بالوصول إلىٰ المعلومات الرقمية وتتنبأ أن هاتف الخلوي الصوتي، يخفض إلىٰ وظيفة مرادفة، قد يصبح مجاناً تماماً. في ذلك الحين، ستصبح الشبكات الرقمية للاتصالات الجوَّالة مندمجة تماماً بالإنترنت.

إن الإنترنت طبعاً ليست شبكة واحدة لكنها تشتمل علىٰ كل الشبكات الرقمية المتضافرة والقائمة علىٰ أساس القياس TCP/IP لبث المعلومات إلىٰ

عناوين مخزنة مسبقاً packet-switched. فبالإشارة إلىٰ الإنترنت، إذن، إنَّها تشمل كل البنية التحتية لهذه الشبكات المتصلة في ما بينها، إنَّها حقاً «شبكة الشبكات، وواحدة، كما تبين شبكات الهاتف الخلوي، والتي سوف تنمو سريعاً لتشمل كل «الشبكات الثانوية» الرقمية. لم يكن نمو الإنترنت خلال العقود الماضية شيئاً أقل من ظاهرة. فعدد مضيفي الإنترنت، أي العقد في الشبكة العالميَّة، قد ازداد من عشرة ملايين في سنة 1996 إلىٰ ما يزيد علىٰ 70 مليوناً في نهاية الألفية (الشكل 6 ـ 1).

بينما لا توجد أرقام ثابتة، يقدر الخبراء أن أكثر من 200 مليون شخص تم وصلهم بالإنترنت من أنحاء العالم في أيلول 1999، وهذا الرقم ينمو بسرعة[23]. حدثت موجة الإنترنت علىٰ الرغم من التكاليف العالية نسبياً اللازمة للمعلومات الصلبة، وخاصة للكومبيوترات الشخصية. وتقديم الكومبيوترات الشخصية المعدة إعداداً كاملاً بسعر لا يتجاوز 1000 دولار. قد فتح الإنترنت لطبقات جديدة كاملة من المستخدمين بمن فيهم أصحاب الدخل المنخفض في البلاد المتقدمة ومن مستخدمين في الدّول النامية. وإدماج وصل الإنترنت بالهواتف الخلوية كما وعدت اتفاقية WAP، والأجهزة الرخيصة الأُخرىٰ سوف تؤدي إلىٰ وصول عدد كبير من الناس الإضافيين سيما في الدّول النامية إلىٰ الإنترنت.

تقدم شبكة الشبكات الرقمية هذه غِنى الوسائل الإعلامية مفتوحة الطرف. لقد شجعت الشبكة العالميَّة بلا شك طلب المستخدم، وذلك بتوحيدها تيارات معلومات واتصالات كثيرة وحدة كاملة. وكان الموردون لأقسام من البُنى التحتية للإنترنت منشغلين بإضافة عرض الموجة للشبكة والتي استخدمها المستخدمون فوراً بالانفتاح علىٰ مزيد من الوسائل الغنية بالعطاءات المعلوماتية. ولتلبية الطلب وضع أكثر من 4000 ميل من كوابل الألياف البصرية في اليوم الواحد في الولايات المتحدة وحدها في سنة 1999[24].

الشكل 6 ـ 1

مسح عدد مضيفي الإنترنت Internet Donain Survey Host Count

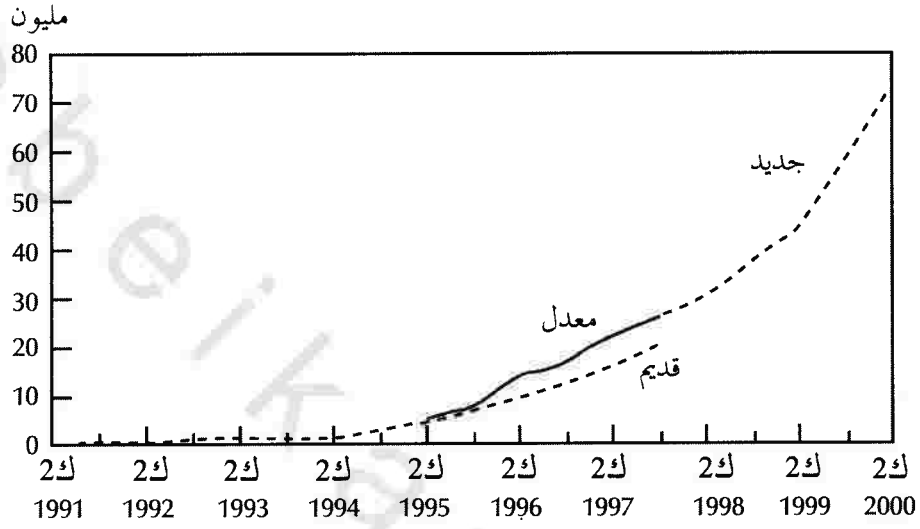

المصدر : Internet Software Consortium (www.isc.org).

كانت الإنترنت تعتبر في البداية ظاهرة خاصة بالبلاد المتقدمة، لكن الآن ضمتها بلاد نامية كثيرة وعدد من الاقتصاديات الانتقالية أيضاً. وللتأكّد لا تزال خريطة العالم لمضيفي الإنترنت تكشف عن اللامساواة في الوصول إلىٰ المعلومات. لكنها ترى أيضاً أنَّها في بداية القرن الحادي والعشرين، قد تحوَّلت الإنترنت حقاً لتكون شبكة معلومات واتصالات عالميَّة.

إن البُعد العالمي للإنترنت قد عمَّقته ودعمته سمة فريدة أُخرىٰ للشبكة هي كلفتها وفواتيرها. فمنذ بداياتها، كان سير الإنترنت تحسب تكاليفه إما برسوم صريحة أَو مبنية علىٰ الزمن والحجم. لم تكن المسافة أبداً عاملاً في بنية الكلفة. وبالتالي، ينسىٰ المستخدمون الموقع الفعلي لشريك اتصالهم أَو مصدر المعلومات. بالنسبة إليهم، لا يهم إن كانت المسافة 100 ياردة أَو 1000 ميل،

ولأن، خلافاً للهاتف، المسافة ليست عامل كلفة، لا يتمتع الموردون للمعلومات ولا شركاء الاتصالات بأية ميزة على الآخرين الموجودين بعيداً جداً. ولذا فإن التوجه العالمي لشركاء الاتصالات على الإنترنت أمر طبيعي.

عمق المحتوى

يمثِّل اتساع الشبكات نمواً في البنية التحتية التي تقوم تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الحديثة عليها، لكن النمو امتد إلى المعلومات المتوفرة على الخط، أي المحتوى أيضاً. لقد مكَّنت بنية الشبكة العالميَّة المعلومات من أنواع مختلفة وأماكن ومحتويات، من الارتباط معاً لخلق شبكة هي بمجملها ـ لأنَّها روابط دمج ـ أكبر من أجزائها. وتزايد عدد المواقع في الشبكة بخطى أكثر تعثراً من تطور الإنترنت. ففي حزيران 1993 كان على الخط 130 موقعاً فقط. وبعد ثلاث سنوات ونصف فقط استطاع مستخدمو الإنترنت الوصول إلى ما يزيد على 650000 موقع[25]. وفضلاً عن ذلك، بينما يستمر النمو الكلي لسير المعطيات في الشبكات الرقمية على خطوته ـ وهناك كل الإشارات بأنَّه سوف يستمر ـ فإنَّه تجاوز سير الصوت على شبكات الاتصالات البعيدة العالميَّة في سنة 1998 وسوف يغطي عليه قرابة سنة 2007[26].

إن اتساع وعمق المحتوى المعلوماتي المتوفر على الخط والقدرات اللانهائية للاتصال عالمياً، قد شجع المستخدمين على تمضية وقت أكثر وأكثر على الشبكة. ففي سنة 1999 كان متوسط الوقت الذي أمضاه المستخدم الأمريكي للإنترنت على الخط 12,1 ساعة في الأسبوع[27]. وأظهرت دراسة في سنة 1999 أجرتها مؤسَّسة Kaiser Family Foundation أن استخدام الإنترنت قد يحل محل مشاهدة التلفزيون في ما بين الأطفال[28]. إن هذه التغيرات في استخدام الوسائل، يحدوها عمق المحتوى المتوفر في الشبكة، لها آثار كبيرة تشمل الآثار الاقتصاديَّة.

الأثر الاقتصادي

إن البُعد الثالث لتقييم التغيرات الجذرية التي تسبِّبها ثورة الاتصالات الحالية تقدمه المعطيات الاقتصاديَّة والأعمال المتوافرة.

لقد جعلت الشبكات الرقمية سوق الاتصالات البعيدة ينمو إلىٰ 600 بليون دولار في سنة 1995[29]. وليس السوق كبيراً فقط، ولكنه ينمو بمعدل يفوق معدل النمو الاقتصادي أيضاً ـ 8٪ من 1990 إلىٰ 1995 ـ وإن كان هذا الرقم لا يزال يشمل شبكات قديمة تعيق النمو[30]. وفضلاً عن ذلك، إن استطاعة هذه الشبكات الرقمية علىٰ دمج الذكاء الجاري في بنياتها قد مكَّنت عاملي الاتصالات البعيدة من ملاءمة هذا النمو بعدد أقل من العاملين[31]. وعلىٰ الرغم من الاستثمارات المالية الكبيرة للبُنى التحتية الرقمية، لذلك حلَّقت أرباح الاتصالات البعيدة ـ وأسعار الأسهم ـ عالياً جداً.

إن الأرقام الكبيرة لموردي البنية التحتيَّة تبدو باهتة عند مقارنتها بأرقام موردي المحتوىٰ علىٰ الشبكات الرقمية. إن عطاءات الإنترنت العامَّة الأولية IPOs دفعت سوق الأسهم إلىٰ ارتفاعات جديدة. فقد كسب الأوائل مثل آمازون Amazon، أَو إيبي Ebay، أَو يتويز Etoys، أو فري تريد Free trade، خانة رقمية أَو خانتان، بليون دولار تقييمات السوق، متجاوزين بذلك أسماء تجاريَّة عالميَّة مؤسّسة منذ زمن طويل[32]. فقد أنتجت صناعة التجارة الإلكترونية هذه دخلاً يقدَّر بثلاثين بليون دولار في الولايات المتحدة وحدها في سنة 1999[33]. وهذا الرقم يجب أن يزداد بسرعة. «فالعيش علىٰ الخط» في العالم الواقعي الذي صنعه موردو المحتوىٰ المعلوماتي العالمي هو طبيعي الآن بالنسبة للبالغين الشباب. وجد مسح فورستر ريسيرتش Forrester Research لسنة 2000 أن 34٪ من محلات المراهقين في الولايات المتحدة علىٰ الخط[34]. وبعد اعترافها بتصاعد اقتصاد المعلومات القائم علىٰ ثورة المعلومات العالميَّة، منحت مجلة التايم أعلىٰ أكاليلها لجيف بيزوس Jeff Bezos من شركة آمازون باختياره «كرجل

السنة»[35]. إضافة إلىٰ ذلك، لقد بدأت الشركات الموجودة في أنحاء العالم بإعادة تنظيم نفسها علىٰ خط الحدود الرقمية الجديد. وتحدث الآن اندماجات من الصغير إلىٰ العملاق ـ مثال AOL مع Time Warner ـ لتوحيد الشبكات والمحتوىٰ أفقياً وعمودياً.

لقد تحولت الشبكات الرقمية ببنيتها التحتية للاتصالات ومحتواها الغني والمرن إلىٰ مصادر هامَّة للنمو الاقتصادي، فقد زادت القيمة المضافة للعامل في الصناعات المولِّدة لضريبة الدخل IT في الولايات المتحدة بمعدل سنوي قدره 10,4٪ في التسعينيَّات أعلىٰ من بقية الدّولة. ويقدّر بعض الخبراء أن نحو ثلث النمو السنوي الكامل في الولايات المتحدة نتج عن التوسع الكبير في «اقتصاد المعلومات»[36].

إن اتساع مدى الشبكة الضخم، والزيادة الكبيرة في اتساع وعمق المحتوىٰ الذي يمكن الوصول إليه، والنمو الاقتصادي المدهش والالتقاء تقدم ثلاثة أنواع مختلفة من المؤشِّرات التي يُقاس بها الصعود الفريد بالشبكات الرقمية العالميَّة. بينما يتطلَّب أي تقييم دقيق لثورة المعلومات من حيث المسافة الزمنية وأدوات القياس المناسبة للبُنى التحتية اللامركزيَّة، فإن أهميتها ككل لا تحتاج إلىٰ أي سؤال.

النتائج

إن نتائج ثورة الاتصالات هذه عميقة بقدر ما هي معقَّدة. وسوف تشعر جميع المجتمعات المتأثِّرة ببعض أهم هذه النتائج، مع حكومات مجبرة علىٰ التفاعل معها. وهي تراوح من الاعتماد علىٰ البُنى التحتيَّة للشبكة من أجل النمو الاجتماعي والرفاه إلىٰ التغيرات في النِّظام الاقتصادي العالمي، ومن نتائج للحكم المحلي إلىٰ تحولات القوىٰ الكامنة في الشؤون العالميَّة.

الاعتماد علىٰ الشبكة

حيث إن الشبكات الرقمية تأخذ دوراً بارزاً بصورة متزايدة في حياتنا

اليومية، من العمل إلىٰ المتعة، فإن مجتمعاتنا ككل سوف تصبح أكثر اعتماداً علىٰ الشبكة وعملها وسلامتها. إن انهيار أربانيت ARPANET في سنة 1980، وتشرب الأمة لنظام التحويل AT & T في سنة 1990، والفوضى العالميَّة التي سبَّبها ڤيروس I Love you في ربيع سنة 2000 تقدم لمحات باكرة عن المدىٰ الذي أَصبحنا فيه معتمدين[37]. وحتى تزداد الأمور سوءاً، إن الزيادة في الاعتماد سوف تتصادف مع زيادة الضعف لأن مقاييس الشبكة قوية ولامركزية بقدر ما هي غير آمنة ومفتوحة. ولمواجهة عدم الأمان هذا، سوف يتوجب علىٰ صانعي السياسة أن ينسِّقوا الجهود محلياً وعلىٰ النطاق العالمي، فيزيدون سياساتهم بإضافات تكنولوجية مثل الترميز والتواقيع الرقمية.

وعلىٰ الرغم من هذه الإصلاحات التكنولوجية، فإن الانفتاح الأساسي للشبكات سوف يتركها عرضة للهجوم نوعاً ما. إن نصاً بسيطاً لهيكل تنظيمي لاستخدام أدوات تضيف أمناً للشبكة لن يكون كافياً. إن خبراء حماية البنية التحتية والوقاية من الكوارث وفرض القانون يجب عليهم تفهم المآزق. وقد يكون أكثر المشاهد خطراً أن يستخدم أحد المستأجرين خيطاً كاملاً من فتحات الأمان المعروفة قليلاً ليطرح الأجزاء الرئيسيَّة للشبكة أرضاً بتأثير حجر الدومينو الذي لن يتوقف عند الحدود.

التقارب والتعديل الجماعي

يربط الكثيرون الإنترنت بالعولمة، وخاصة في قطاع الأعمال، لا شك في أن الشبكات العالميَّة تكمل التجارة العالميَّة والعولمة الاقتصاديَّة إذ إنَّها تخفض من تكاليف العمليات عبر الحدود وذلك في الدعاية والتسويق والطلب. سوف تلقى العولمة انتعاشاً كبيراً من الإنترنت عندما يصبح جزء كبير من المعلومات المتاجر بها عالمياً يوزَّع في الشبكات.

توجد ناحية ثانية اقتصاديَّة هامَّة للشبكات الرقمية. فهي تقدِّم الإطار لتحريك الاقتصاد من الإنتاج الجمعي إلىٰ إنتاج مرن وتعديل جماعي. يجسِّد

الإنتاجَ الجمعي تأكيدُ هنري فورد Henry Ford بأن الزبائن يستطيعون أن يحصلوا علىٰ السيارة T في أي لون يشاؤون ما دامت السيارة سوداء، يعتمد ذلك علىٰ طلب المتنبئ، وإنتاج مخزون بناء علىٰ النبوءة ومن ثم استخدام الإعلان ليشجع الطلب علىٰ المنتجات. ويصبح معظم الإنتاج ممكناً جزئياً بقدرة المنتجين علىٰ إذاعة معلوماتهم التسويقيَّة علىٰ عدد كبير من الزبائن القادرين. لقد تم استخدام الوسائل الموجودة بصورة ناجحة لهذا الغرض.

تسمح الشبكات الرقمية بنموذج مختلف للإنتاج، وهو علىٰ الأقل نظرياً، أكثر جدوىٰ. فباستخدام مقدرات الشبكات للاتصالات من جهتين، يستطيع المنتجون أن يسألوا الزبائن قبل البدء بالإنتاج. ثم ينتجون بشكل مثالي ما طلبه الزبائن فقط. وهذا التعديل الجماعي مفهوم روّج له ستان ديڤيس Stan Davis في سنة 1987، وهذَّبه نظرياً جوزيف باين Joseph Pine، هو الآن استراتيجية في مقدمة الاقتصاد الجديد[38]. إن المعلومات المادِّيَّة من الزبون التي تقود إلىٰ تعديل الإنتاج تحل محل تدفق المعلومات الكثيرة من المنتجين إلىٰ الزبائن. وجعلت من الممكن لشبكات كومبيوتر كبيرة مثل ديل Dell أَو آبل Apple أن تعرض كومبيوتراتها (بناء علىٰ الطلب) في مواقعها، وبذلك تخفض مخزونها إلىٰ حدّ قليل يكفي عمل يومين فقط، كسب في المردود كبير بفرض تخفيض الموجودات إلىٰ حد كبير في قطاع الكومبيوتر. لكن التعديل الجماعي ليس محدداً بقطاع التصنيع، فهو تقريباً خيار طبيعي لقطاعات الخدمات المتعلِّق بالمعلومات ووسائل الإعلام. تنبأت أول التسعينيَّات بعالم فيه 500 قناة تلفزيونية. ولقد أظهر نجاح الشبكة العالميَّة أن 500 قناة لا تكفي اليوم ولكن الأجدىٰ تيار واحد للمعلومات معدل بصورة عالية لكل مستخدم، «قناة لكل مستخدم».

إن إعادة بناء أَشكال الأَعمال الهامَّة في اقتصاد الشبكات الجديد تضع قضايا سياسيَّة كثيرة وجديدة ومعقَّدة وتشمل السرِّيَّة والملكية الفكرية لأن القدرة علىٰ التحكّم بالمعلومات واستخدامها تصبح المصدر للثروة.

مجتمعات عملية

إن مدىٰ الشبكات العالميَّة، ومعايير تشكيل المحتوىٰ علىٰ مستوىٰ العالم، وزيادات جذرية مستمرة فعرض الموجة سوف تخلق خبرة معلوماتية في كل مكان لعدد متزايد من المستخدمين. وطريقة تسعير الإنترنت بإهمالها للمسافة سوف تسهل هذا التطور أيضاً. ومع تحول «اقتصاد المعلومات» من تسليم السلع الحقيقيَّة إلىٰ تسليم المعلومات عبر الشبكات، فسوف تصبح قضايا إعاقة الأَعمال التجارية الإلكترونية، بسبب البُنى التحتيَّة لتوزيع المنتج، أقل أهمية. لن تكون «المسافات» في الشبكات الرقمية مسافات مادية لكنها عنق الزجاجة في عرض الموجة وسرعة المعالجة. وسوف يمارس الناس الجوار والمسافة كالفرق بين مصدر معلومات سريع مرتبط بشبكة ذات موجة عريضة ومصدر صغير مرتبط بشبكة بطيئة لا يعتمد عليه.

تعتمد صناعة السياسة التقليديَّة، علىٰ الأقل بصورة جزئية، علىٰ المفهوم أن الدّول تربط الناس معاً علىٰ أساس الجوار الجغرافي. فيفترض كامل النِّظام القانوني في العالم تقريباً مفهوم الموقع الحاسم. وللأحكام حدود أرضية والناس ملزمون بها ضمن هذه الحدود. لكن مستخدمي الشبكات الرقمية العالميَّة لم يعودوا يمارسون الحدود الجغرافية[39]. وبدلاً منها سيمارسون بشكل أكبر وأكبر حدوداً تقرِّرها المجتمعات بنفسها، يخلقها المستخدمون الذين يشتركون في اهتمامات وأهداف واحدة. هذه «المجتمعات العملية»، وأَصبحت التسمية مشهورة بواسطة عالِم الإنترنت هوارد رينغولد Howard Rheingold في سنة 1963، ليست مرتبطة معاً بجوار جغرافي بل بقِيَم وأهداف أَو خبرات مشتركة[40]. والأكثر من ذلك، يستطيع المرء أن يكون جزءاً واحداً من مجتمع فيزيائي واحد في جميع الحالات، لكنه لا توجد قيود مماثلة في المجتمعات العملية. وهكذا فإن ترك مجتمع فيزيائي هو عكس الخروج من مجتمع عملي في معظم الحالات لأن هذا الخروج لا يكلِّف الفرد إلاَّ القليل.

إن الحكم القائم على أساس جوار جغرافي وموقع جغرافي وعضوية حصرية للمجتمعات الفيزيائية سيتحداه بصورة أساسية قدوم مجتمعات عملية كثيرة لا تقوم على الجوار. لقد اقتُرح عدد من نماذج الحكم في هذه الأرضية الجديدة من القانون العالمي إلى الحكم الذاتي لمجتمع ما ولكن كيف، وإلى أي مدى يمكن أن تختلط هذه المفاهيم مع نظام الحكم المسيطر القائم على الدّولة. يبقى أن نرى.

التقسيم الرقمي

تتحوَّل الشبكات الرقمية تحولاً سريعاً إلى أدوات قوَّة. وسوف يكون الوصول إلى الشبكات هو المفتاح للعب دور في الاقتصاد الجديد. فالإنطلاقات التكنولوجية مثلاً في الاتصالات اللاسلكية، وقانون مور قد تسمح للمجتمعات ذات الوصول المحدود إلى الشبكات حالياً بقدرات تمكِّنها بالقفز كالضفدع لدخول عصر المعلومات. وفي الوقت نفسه، ليس الوصول إلى الشبكات مثل الإنترنت معتمداً على البنية التحتية التكنولوجية فقط، فإن الناس الراغبين بالوصول إلى الشبكة يحتاجون إلى معرفة كيف يبحرون ويكتشفون موقعاً لا يزال متعلِّقاً بالنص الإنكليزي بشكل موسَّع، بغضِّ النظر عن السهولة التي ستصبح عليها أجهزة الوصول إلى المعلومات. ويتنبأ البعض أن هذه الفجوة الثقافيَّة سوف تمنع نسبة عالية من سكان العالم، وخاصَّة غير القادرين اجتماعياً، من كامل مزايا الشبكة، وبالنتيجة عزلة أكبر. والتغلب على هذه التحديات يتضمن في مثل هذا التحليل لمجتمع ذي طبقتين سوف يضع قضية حكم خطيرة أُخرى.

بينما لا تكون الشبكات الرقمية العالميَّة القوة الوحيدة أَو الأُولى للعولمة، فإنَّها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتحرّك نحو العولمة، وذلك عن طريق وضع الوقود فيها وأخذ الوقود منها. وبذلك تكون النتائج الاجتماعيَّة عميقة: اعتماد على الشبكة، والانتقال من الإنتاج الجمعي إلى تعديل جماعي، والمجتمعات

العملية، وسقوط أهمية الجوار الجغرافي كعنصر للتعريف، وكذلك الأضرار الممكنة للتقسيم الرقمي الاجتماعي والعالمي يمثّل أربعة مناطق لتحدي الحكم في القرن الحادي والعشرين.

ملاحظات

(1) كارل بوبر (Karl Popper)، «Alles Leben ist Problem losën»، ص 22 (Riper 1994).

(2) إليزابيت اينشتاين (Elizabeth Einstein)، «The Printing Revolution in Early Modern Europe», (Canto, 1983).

(3) بينيديكت أندرسون (Benedict Anderson)، «Imagined Communities»، (London: Verso, 1983).

(4) مارشال ماكلوهان (Marchal Mcluhan)، «Understanding Media»، (McGrow-Hill, 1964).

(5) نيقولاس ينغروبونت (Nicholas Negroponte)، «Being Digital»، (Knopf, 1995).

(6) غوردن مور (Godon Moore)، «Gramming More Components Onto Interated Circuits»، (Electronics Series (1965)).

(7) جورج جيلدر (George Gilder)، «Fibers keeps its Promise»، (Forbes ASAP, April) 7, 1997، ص 90 ـ 94.

(8) فيليبس إيفانز، توماس ورستر philips Evans, Thomas Wurster، «Blown To Bits» (Harvard Business School Press, 1999)، ص 14.

(9) www.apple.com.، 4 كانون ثاني/ 2000، «Apple Computer Announces Internet Strategy».

(10) حتى مقياس DVD العالمي يتضمن «رمزاً إقليمياً جغرافياً يمنع DVD الأمريكية من العمل على أجهزة DVD أوروبية وذلك لأسباب حقوق التأليف».

(11) (RTC 24600) كانون الأول 1998، Internet Protocol version 6 (Ipv6) specification, IP version 6 Addressing Architecture، وكذلك (RTC 2373) تموز 1998.

(12) Metcalf أحد البروتوكولات Ethernet، الذي جعل من الممكن التوجه نحو الشبكات؛ و«قانونه» هو أن قيمة الشبكة تظهر بتربيع عدد المشتركين. راجع عموماً (روبرت متكالفس) (ORobert Metcalfs) «Packet Communication», (Thomson, 1996).

(13) لا ينحصر النجاح بالأمم الآسيوية، لكنه يمتد مثلاً إلى دول الشرق الأوسط. في سنة 1995 كان لدى الجزائر مستقبلات القمر الصناعي المباشر إلى المنازل (DTH) قرابة (600,000) وهذا أكبر من العدد في إيطاليا (479000). اتحاد الاتصالات البعيدة العالميّة، «World Telecommunication Indicators Database» 4th ed. (Geneva).

(14) «World Telecommunications Indicators Database, ITU»، طبعة رابعة.

(15) «Digital DTH Subscribers to Outnumber Digital Cable Subscribers through 2003» according to «Cahners In-Start Group» (Business Wire, October 19, 1999, online, Lexis Nexis Academic Universe, August 16, 2000)Û

(16) ITU، World Telecommunications Indicators Database, 4th ed.

(17) «The World in Your Pocket»، (Economist، 9 تشرين الأول 1999).
Telecommunications Survey, Page 4.

(18) «Cutting the Cord»، (Economist) تشرين أول 18 ـ 1999
Telecommunications Survey, P. 6Û

(19) أضافت كوريا الجنوبية مليون مشترك جوال في سنة 1997 وحدها. «Testing Time for the Tigers» Economist 31 تشرين أول 1998. في إسرائيل 28 هاتفاً جوّالاً لكل 100 شخص، وهي نسبة تزيد على النسبة في الدانمارك، وفي لبنان 16 مشتركاً خلوياً لكل 100 شخص وهي نفس النسبة في بريطانيا «A Toy for Middle Eastern Time»، (Economist) 10 نيسان 1999 ص 45.

(20) (Economist 9 تشرين أول 1999) «At the Back Beyond «Survey Telecommunications» ص 18.

(21) 20 كانون أول 1999 «Das Handy als Brieftäger«, ORFON,
انظر أيضاً «In Search of Smart Phones», Economist 9 تشرين أول/ 1999
ص 12 و16 «Survey Telecommunications»

(22) «The World in Your Pocket»، ص 5.

(23) الإحصائيات الموجودة على الموقع www.nua.ie. (15 آب 2000).

(24) إيفانز وورستر Blown to Bits» wired 8.04» ص 14؛ وص 82 تقارير بموجب دراسة شركة KMI، «نواقل الاتصالات البعيدة في شمال أمريكا سوف تركب 6,8 ملايين ميل من الألياف البصرية في سنة 2000، أربعة أمثال ما رُكّب في 1997.

(25) [15 آب 2000] www.mit.edu/people/mkgray/net/internet-growth sumary.html.

(26) فيليب ماتوني (Philip Mutooni) وديفيد تينن هاوس (David Tennenhouse)، «Modeling the Communication Network's Transition to a data-centric Model» قدمت في مؤتمر حول تأثير الإنترنت على سياسة الاتصالات.
Harvard Information Infrastructure Project, Harvard University, 1997.

(27) Intelliquest Survey at WWW-intelliquest.com/press/release78.asp-27.

(28) «Kids and Media at the New Milleninnium, The Kaiser Family Foundation (شهر تشرين الثاني 1999).

(29) World Telecommunications Indicators Database (ITU).

(30) نفس المصدر.

(31) مثلاً، العاملون بدوام كامل في الاتصالات البعيدة في المملكة المتحدة تناقصوا من 244000 في 1988 إلى 141000 في 1996؛ في الولايات المتحدة من 901000 في 1988

إلىٰ 897000 في 1996؛ وفي اليابان من 286000 في 1988 إلىٰ 213000 في 1996؛ وفي ألمانيا من 23000 في 1993 (بعد توحيد ألمانيا) إلىٰ 214000 في 1996.
World Telecommunications Indicators databse 4 طبعة (ITU).

(32) Priceline.com.، موقع حجز تذاكر الطائرات وغرف الفنادق من بين سلع أُخرىٰ، كانت قيمة السوق لديها بعد IPO فاقت ثلاث شركات طيران في الولايات المتحدة مأخوذة معاً.

(33) «Post-Holiday Survey Uncovers Where Online Shoupers Spent Their Money». Ernst & Young press release, 3 كانون ثاني 2000.

(34) «Young Net Shoppers Soar Ahead of Online Adults» according to Forrester Research press release 23 شباط 2000.

(35) جوشوا كاسبر رينو Joshua Casper Reno.
«The Fast Moving Internet Economy Has a couple of Competitors... and Here's the King Jeffrey Preston Bezos-1999 Person of the Year».
Time Magazine، 27 كانون أول 1999، ص 50 ـ 55.

(36) «The New Economy: Work In Progress,» Economist, July 24, 1999 ص 21 ـ 24.

(37) لمراجعة مؤثرة وتحليل المشكلة، انظر بيتر نيومان (Peter Neumann)، «Computer-Related Risks», (ACTI Press, 1995).

(38) ستان ديفز (Stan Davis)، «Future Perfect» (Addison-Wesley, 1987)، وجوزيف باين (Joseph Pine)، «Mass Customization», (ARS Press, 1993).

(39) لكنهم يمكن أن يمارسوا حدوداً ثقافية.

(40) هوارد رينغولد (Howard Rheingold)، «Virtual Community» (Addison-Wesley 1993).